



صِلَات النور

أحاديث نبوية من الصحيحين تصل الإنسان بربه
ونفسه وأهله وخلقه



بأسلوب أدبي وتأملي

مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي جعل في كلام نبيه ﷺ ما يُغني عن مكتبات، وصلى الله وسلم على من كان خلقه القرآن.

الإنسان لا يعيش فرداً؛ فهو منذ يفتح عينيه على الدنيا محاطٌ بخيوطٍ تشده من كل جهة: خيطٌ إلى نفسه التي بين جنبيه، وخيطٌ إلى ربّه الذي خلقه، وخيطٌ إلى أهله الذين آووه، وخيطٌ إلى الناس الذين يخالطهم، وخيطٌ إلى عمله الذي يُنفق فيه عمره. فإن استقامت الخيوط استقام النسيج، وإن اضطرب واحدٌ منها اضطربت الباقيات؛ وكَم من حياةٍ ضاعت لأن صاحبها شدَّ خيطاً فأرخی آخر، أو أحكم عقدةً وأهمل أخرى.

وقد جاء النبي ﷺ يعلم الناس كيف يمسون هذه الخيوط بأيدي رقيقة، فلم يترك علاقةً إلا وضع لها ميزاناً: في الإيمان ميزان، وفي المعاملة ميزان، وفي البيت ميزان، وفي الكلمة التي تخرج من الفم ميزان. وهذا الكتاب محاولةٌ لجمع هذه

الموازن من أصح ما رُوي، وترتيبها بحسب العلاقة التي تنظمها، لا بحسب أبواب الفقه التي ألفها الناس.

ولست أزعّم أنني أبسط القول في كل حديث بسط الشراح، فما أنا بشارح، ولكنني وقفتُ عند كل حديثٍ وقفةً من يتأمل الصورة في يده: أنظر إلى ما فيها من حياة، وأسأل ما الذي أراد النبي ﷺ أن يُحدثه في القلب قبل أن يُحدثه في العمل. فإن كان في ما كتبتُ صوابٌ فمن توفيق الله، وإن كان فيه خطأً فمن نفسي والشیطان، والله ورسوله منه بريئان.

منهج الكتاب: اقتصرْتُ في هذا الكتاب على ما أخرجه الإمامان البخاري ومسلم رحمهما الله، ولم أُورد حديثاً ضعيفاً ولا ما كان خارج الصحيحين. وقد أثبتُ في الغالب لفظ أحد الشيخين، وربما اختصرْتُ الحديث الطويل بما يقتضيه الغرض، مع التنبيه بالنقط عند الحذف. ولم أثقل الكتاب بأرقام الأحاديث وطبعاتها، واكتفيتُ بنسبة كل حديث إلى من رواه، ليرجع القارئ إلى مظانّه.

فهرس الكتاب



1	مقدمة
4	الفصل الأول: علاقتك بربك
13	الفصل الثاني: علاقتك بنفسك
22	الفصل الثالث: علاقتك بذنوبك وتوبتك
30	الفصل الرابع: علاقتك بالعبادة
38	الفصل الخامس: علاقتك بدعائك وذكرك
45	الفصل السادس: علاقتك بأخلاقك
52	الفصل السابع: علاقتك بصبرك وإبتلائك
59	الفصل الثامن: علاقتك بمجسّدك وصحتك
67	الفصل التاسع: علاقتك بأهلك
77	الفصل العاشر: علاقتك بأصحابك وإخوانك
84	الفصل الحادي عشر: علاقتك بالناس
94	الفصل الثاني عشر: علاقتك بعملك
103	الفصل الثالث عشر: علاقتك بمالك ودينك
111	الفصل الرابع عشر: علاقتك بعلمك ووقتك ولسانك
118	الفصل الخامس عشر: علاقتك بما حولك من الخلق
124	الفصل السادس عشر: علاقتك بالموت والآخرة
131	خاتمة

الفصل الأول: علاقتك بربك



هي العلاقة الأولى التي نتفرع عنها سائر العلاقات، كما نتفرع الأغصان عن الجذع، ويُسقى الجذع من عين لا تنضب. فمن صحَّ له ما بينه وبين ربه، سهل عليه ما بينه وبين نفسه وبين الناس؛ ومن فسد أصله، لم ينفعه حسن فروعه.

وهذه الأحاديث التي بين يديك ترسم لك هذه العلاقة كما رسمها صاحب الرسالة ﷺ: نيةٌ تصحَّح، وحقٌّ يعرف، وظنٌّ يحسن، ورحمةٌ ترجى، ولقاءٌ يُشاق إلىه.

النية: مفتاح القلب

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

رواه البخاري ومسلم

القلب ملك الجوارح، وللملك أن يأمر فيُطاع؛ فإذا صلح الملك صلحت الرعية، وإذا فسد فسدت. وما العمل عند الله إلا جسدٌ روحه النية، فإن فارقتهُ الروح صار صورةً لا حياة فيها، وإن حضرت في العمل اليسير ارتفع قدره حتى يوازي الجبال.

وانظر كيف جعل الحديث المقياس باطنًا لا ظاهرًا؛ فقد يتفق رجلان في السير والحركة والوجهة المرئية، ثم يفترقان اقتراق الأرض والسماء، لأن أحدهما مضى إلى الله والآخر مضى إلى امرأة أو درهم. وهذا هو الفرق بين إنسان يعمل لمعنى، وإنسان يعمل لمنفعة عاجلة.

الإحسان: أن ترى من لا يرى

عن عمر رضي الله عنه في حديث جبريل الطويل أنه قال: يا رسول الله، أخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

رواه مسلم

هذه درجتان: أعلاهما مشاهدةٌ تجعل العبد كأنه واقف بين يدي ربه، وأدناها مراقبةٌ تُشعره أن عينًا لا تنام تحيط به. فصاحب الأولى يعبد الله شوقًا، وصاحب الثانية يعبده حياءً؛ وكلاهما على الطريق.

ولو تأملت لوجدت أن أكثر ما يفسد أعمال الناس غيبة الرقيب عن خواطرهم؛ فمن استحضر أن الله يراه استقام ظاهره وباطنه بلا شرطي ولا قانون. وهذه أعظم رقابة عرقها النفس الإنسانية، لأنها رقابة تنبع من الداخل ولا تحتاج إلى سوط من الخارج.

حق الله وحق العباد

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً».

رواه البخاري ومسلم

ما أعجب هذه المقابلة! حقُّ للعبد أن يعبد، وحقُّ على الله أن يُكرم من عبده؛ ولكنَّ الأول واجب على العبد بحكم الربوبية، والثاني تفضُّل من الله التزم به رحمةً، لا إلزاماً لأحد عليه. فالعبد مدين بكل شيء، والرب غنيُّ كريم.

ومن هذا الحديث تعلم أن التوحيد ليس عقيدة تُحفظ في الذهن فحسب، بل هو عقد بين طرفين، طرف يقدم الإخلاص وطرف يقدم الأمان. وفي تواضع

الجلوس على حمار خلف النبي ﷺ معنى لطيف: أن أعمق الحقائق قد تُقال في أبسط المواقف.

حسن الظن بالله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم...».

رواه البخاري ومسلم

ظنُّك بربِّك هو الصورة التي ترسمها نفسك عنه؛ فمن ظنَّ به الجود وجد الجود، ومن ظنَّ به القسوة عاش في ظلمة ما ظنَّ. وليس المراد التَّمنِّي الفارغ، فإنَّ حسن الظن الصادق يقتزن بحسن العمل، كما يقتزن الأمل بالغرس.

وفي الحديث معنى بديع: أن ذكر العبد لربه ذكرٌ لا يضيع، بل يُقَابَل بمثله وزيادة؛ فإنَّ ذكركَ في خلوتكَ ذكركَ في خلوته، وإنَّ ذكركَ في الجمع ذكركَ في ملأٍ هم خير ممن ذكرْتَ فيهم. فمن يخسر والله ذاكره؟

رحمة أرحم من الأم

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها فأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا والله، وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

رواه البخاري ومسلم

أراد النبي ﷺ أن يضرب للرحمة الإلهية مثلاً من أعظم ما تعرفه النفس، وهو حنان الأم حين تجد ولدها بعد فقد؛ ثم قال إن رحمة الله فوق ذلك. وهي لغة العقل والعاطفة معاً: فمن رأى هذه المرأة تُلقم الصبي ثديها وسط الزحام، فقد رأى ظلاً ضئيلاً لرحمة لا يحدها وصف.

فلا تقنط وإن كثرت ذنوبك، ولا تأمن وإن كثرت طاعتك؛ فالرحمة أوسع من الذنب، والعدل أحق من الأمن. وبين الرجاء والخوف يمشي المؤمن كما يمشي الطائر بجناحين لا يصلح بأحدهما وحده.

الشوق إلى اللقاء

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب لقاء الله، ومن كره لقاء الله كره لقاءه». فقالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت! قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب لقاءه...».

رواه البخاري ومسلم

ليس هذا الحديث دعوةً إلى أن يتمنى الإنسان الموت، وإنما هو تصحيحٌ لمعنى الشوق، فالطبع البشري يكره مفارقة الدنيا، ولا يلام على ذلك. إنما يُسأل عن حاله لحظة يرى ما أُعدَّ له، فإن انكشف له الغطاء عن بشرى فرح، وإن انكشف عن غير ذلك كره ما هو مقبل عليه.

فاللقاء إذن ثمرة سيرة طويلة؛ من عاش على موعدٍ مع الله استبشر بقرب الموعد، ومن عاش غافلاً عن الموعد ارتاع عند حلوله. وكأن الحياة كلها تدريبٌ على هذا اللقاء.

رحمةٌ تغلب الغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي غَلَبَتْ غَضَبِي».

رواه البخاري ومسلم

كُتِبَ مكتوب فوق العرش قبل أن يُخْلَقَ الإنسان، تَقْرُؤُهُ الملائكة ويعلمه من شاء الله: أن الرحمة هي الأصل وأن الغضب عارضٌ يأتي بعدها. فمن عرف هذا لم ييأس من ربه وإن أسرف على نفسه، لأن القاعدة الكبرى لا تزال في صفّه.

وفي لفظ الغلبة ما يشير إلى مواجهةٍ بين الرحمة والغضب، تنتهي بانتصار الأولى؛ فكأن في كل ذنبٍ يرتكبه الإنسان فرصةً ليرى كيف تنتصر رحمة ربه على ما يستحقّه. وهذا لا يدعو إلى التهاون، بل إلى الحياء ممن غلبت رحمته عدلّه في معاملتنا.

حين يحبك الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله العبد نادى جبريل: إن الله يحبَّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحبَّ فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

رواه البخاري ومسلم

حبَّ الله لعبدٍ لا يبقى في السماء وحدها، بل ينزل إلى الأرض قبولاً في القلوب؛ فترى الناس يميلون إلى إنسانٍ لا يعرفون لماذا، وما السبب إلا أنَّ الله فيه سرّاً. وما أعظم القبول إذا جاء من هذا الباب! فهو لا يشتري بمال ولا يُنال بحيلة.

فمن أراد قلوب الناس فليبدأ من فوق، ومن أصلح ما بينه وبين ربه أصلح الله ما بينه وبين الناس. وهذه من أدقِّ قوانين الاجتماع الإنساني، لو فقهها الطامحون إلى المكانة لوَفَّروا على أنفسهم كثيراً من التصنُّع.

يا عبادي

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، إني حرّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا. يا عبادي، كلّكم ضالٌّ إلا من هديتهُ فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، كلّكم جائعٌ إلا من أطعمتهُ فاستطعموني أطعمكم...».

رواه مسلم

حديثٌ يبدأ بالعدل وينتهي بالفقر إلى الله، فهو يضع الإنسان في موضعه الصحيح: لا يظلم لأن الله حرّم الظلم، ولا يستغني لأنه ضالٌّ جائعٌ عارٍ إن لم يُمدّه ربه. وبين هذين الحدين تدور حياته كلها.

وانظر إلى نداء «يا عبادي»، ما أرقّه! يخاطب الله عبده بنسبةٍ تُشرفهم، ثم يعلمهم كيف يسألونه: استهدوني، استطعموني، استكسوني؛ فكأن السؤال نفسه كرامة، لأنه يعني أن باباً مفتوحاً ينتظر من يطرقه.

الفصل الثاني: علاقتك بنفسك



أصعب الناس عليك نفسك، وأقربهم منك نفسك، وأكثرهم قدرةً على خداعك نفسك. وكم من إنسان أحسن إلى الناس وأساء إلى نفسه، وأقام العدل في الأرض ولم يقمه في ضميره.

والنبي ﷺ لم يأمرنا بقهر النفس ولا بتدليلها، وإنما بتربيتها كما يربي البستاني شجرته: يتقص ما زاد ويسقي ما قلّ ويقيم المعوجّ بالرفق والمثابرة.

القوة التي يحبها الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

رواه مسلم

لم يجعل الإسلام الضعف فضيلة، ولا جعل التواكل ورعاً؛ بل جعل القوة محبوبة عند الله، قوة البدن والعزم والعلم والإرادة. غير أن الحديث يقيّد هذه القوة بقيدين: أن تتجه إلى النافع، وأن تستعين بالله وهي تعمل.

ثم انظر إلى دقته النفسية في حرف واحد: «لو». فإنها بابٌ يدخل منه الحزن على ما فات، فيشّل ما هو آتٍ. فعالج النبي ﷺ جرح الإخفاق بدوائين: اعمل قبل أن يقع الأمر، وسلّم بعد أن يقع.

لنفسك عليك حق

عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال: كل، فإني صائم. قال: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل... فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم. فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصلياً، فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه». فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان».

رواه البخاري

هذه قاعدة في العدل الداخلي: أن تكون للإنسان حقوق متعددة، وأن الإفراط في حقٍّ منها هو تفريط في غيره. فمن أجهد بدنه في العبادة حتى كلَّ، فقد ظلم جسده؛ ومن أهمل أهله في طلب القربة، فقد أخلَّ بميزان الدين نفسه.

ولاحظ أن الحكم في المسألة رجلٌ جاء من بلاد فارس، ثم صدقه الرسول ﷺ. وما أجمل هذا: أن الحق لا ينظر إلى قائله، بل يوزن بما فيه.

القوة عند الغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

رواه البخاري ومسلم

الصرعة هو كثير الصرع للرجال، يغلب كل من ناوأه؛ فقلب النبي ﷺ المقياس، وجعل البطل الحقيقي من غلب نفسه حين يثور. وأي غلبة أعسر من غلبة عدو يسكن بين جنبيك، ويعرف مواضع ضعفك، ويتحرك بدمك؟

والغضب عاصفة؛ من واجهها بلا كالج ذهبت به، ومن قاومها بالترث نجا. وفي كثير من القصص التي ندمنا عليها، لم تكن المشكلة في الموقف، وإنما في ثلاث دقائق قبل أن نتكلم.

صلاح القلب

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

رواه البخاري ومسلم

كل ما في الإنسان خادماً للقلب: العين تنقل له، والأذن تحمل إليه، واللسان يترجم عنه، واليد تنفذ أمره. فمن أراد إصلاح السلوك بلا إصلاح القلب كان كمن يغسل الماء الآسن من الفروع ويترك العين الملوثة تنبع.

وقد سمّاه الحديث مضغة، أي قطعة لحم صغيرة؛ لكنه الصغير الذي يحمل العالم، والضعيف الذي تقوم به القوة. وليس عجيباً أن يكون أعظم جهاد الإنسان جهاد قلبه.

عجباً لأمر المؤمن

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

رواه مسلم

الحياة تقلّب بين يسر وعسر، فالناس فيها صنفان: صنفٌ يتغيّر بتغيّر الحال حتى لا يُعرف، وصنفٌ يثبت كالجبل، له في كل حال عبادة. فإذا جاءه الخير شكر فازداد، وإذا جاءه البلاء صبر فارتفع.

وهذا ميزان الاتزان النفسي كما لم يعرفه فلاسفة الأخلاق: أن ينتقل الإنسان من الرخاء إلى الشدة وهو هو، لأنه يرى في كليهما رسالةً لا عقوبة، ويرى الوجود كله مدرسةً لا حلبة.

انظر إلى من هو دونك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم».

رواه مسلم

أشدّ ما يسرق الرضا من القلوب هو المقارنة. فمن نظر إلى من فوقه رأى النقص في نفسه ولو كان سيّد قومه، ومن نظر إلى من دونه رأى النعمة في يده ولو كانت يسيرة. وليست هذه دعوة إلى القعود، فقد أمر النبي ﷺ بالحرص على النافع، وإنما هي علاجٌ للقلب في ما لا يملكه.

فاجعل نظرك في الدنيا إلى أسفل، وفي الطاعة إلى أعلى؛ فإن الأولى تثمر قناعة، والثانية تثمر همّة، وبهما يستقيم الميزان.

وصية: لا تغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «لا تغضب». فردّد مراراً، قال: «لا تغضب».

رواه البخاري

طلب الرجل وصيةً جامعة، فلم يزد النبي ﷺ على كلمتين، وكرّرها مراراً. وما ذاك إلا لأن الغضب هو الباب الذي تدخل منه أكثر الشرور: كلمة لا تُسترجع، وفعلَةٌ لا تُمحي، وقطيعةٌ لا تُرمم.

وليس المطلوب ألا يحسّ الإنسان بالغضب فهذا خارج عن الطاقة، وإنما ألا يتبعه؛ أن يجعل بين الشعور والفعل مسافةً يمرّ فيها العقل. ومن أتقن هذه المسافة ملك زمام حياته، وسلم من ندمٍ طويل على لحظةٍ قصيرة.

ينظر إلى القلوب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

رواه مسلم

كم يقضي الإنسان من عمره في تحسين الصورة وزيادة المال، وكأن الناس هم الذين سيحاسبونه! أما الله فلا يلتفت إلى هذين، لأنه يعلم أنهما من الطين، وينظر إلى الجوهر الذي سيبقى بعد زوال الصورة وفناء المال.

وفي الحديث راحة للضعيف الذي لا جمال له ولا مال، وتحذير للقوي الغني المغرور. فالميزان واحد لا يتبدل، والرفعة فيه لصاحب القلب السليم، مهما قلَّ حظُّه من الدنيا.

ما حدثت به النفس

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست - أو حدثت - به أنفسها، ما لم تعمل به أو تتكلم».

رواه البخاري ومسلم

في الصدر ألف خاطر في اليوم، منها السيئ ومنها التافه ومنها ما يخجل الإنسان أن يعترف به لأحد. ولو حوسب على كل خاطر هلك؛ فجاءت الرحمة تعفو عن حديث النفس ما لم يتحول إلى عملٍ أو قول.

وهذا يُريح من يعذب نفسه بوساوس لا يملكها، ويفرق بين الخاطر الذي يمر والعزم الذي يستقر. فليس كل ما يخطر ببالك يُنسب إليك، وإنما يُنسب إليك ما

أَقْرَرْتَهُ وَعَمِلْتُ بِهِ.

الفصل الثالث: علاقتك بذنوبك وتوبتك



ليس في الدنيا من لا يخطئ، وإنما الفرق بين الناس في ما يفعلون بعد الخطأ: فمنهم من يُصرّ فيهلك، ومنهم من يتحسّر دون أن يتغيّر فيراوح مكانه، ومنهم من يتوب فيرتفع. والتوبة هي الباب الذي جعله الله مفتوحاً لأعظم المذنبين قبل أصغرهم.

وقد تكاثرت أحاديث الصحيحين في بيان رحمة الله بالتائبين، لا لتدعو إلى التهاون في المعصية، وإنما لتقول للمذنب: لا تيأس، فإن الله ينتظر عودتك. وما أجمل أن تقرأ هذه الأحاديث وأنت تشعر أنك المقصود بها!

فرحة الله بتوبة عبده

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلّها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح».

رواه مسلم

صوّر النبي ﷺ مشهداً مؤثراً: مسافرٌ في صحراء قاحلة، فقد دأبته وفقد معها الطعام والشراب، فأيقن الهلاك، ثم رآها أمامه حيّةً سالمة. فمن شدة الفرح أخطأ في اللفظ فقال: أنت عبدي وأنا ربك. فقال النبي ﷺ: الله أشدّ فرحاً بتوبتك من هذا الرجل بدابته.

إن هذا الحديث يقلب نظرة العاصي إلى ربه: لم يعد الله ربّاً ينتظر العثرة ليعاقب، بل ربّاً يفرح بعودة ضال، فرحاً يفوق فرح الغريق إذا نجا. ومن علم أن الله يفرح بتوبته أسرع إليه، فإن المرء لا يبطئ عن بابٍ يعلم أن وراءه من ينتظره بشغف.

يده مبسوطة

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

رواه مسلم

صورةً بليغة للرحمة الدائمة: يد الله مبسوطة لا تُقبض ليلاً ولا نهاراً، تستقبل التائبين في كل ساعة؛ فمن أساء بالنهار فباب الليل مفتوح له، ومن أساء بالليل فباب النهار مفتوح. فلا يبقى عذرٌ لمن يؤجل التوبة إلى غدٍ، ولا لمن يظن أن بابها قد أُغلق.

وما يُغلق هذا الباب إلا يوم تطلع الشمس من مغربها، وهي من علامات الساعة الكبرى؛ فإذا جاءت لم ينفع نفساً إيمانها. فالفرصة تتسع لكل إنسان ما دام حياً، وتضيّق عند الموت أو عند آية الساعة. وعلى كل عاقل أن يبادر قبل أن تُغلق الأبواب.

لو لم تُذنبوا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

رواه مسلم

ليس في الحديث دعوة إلى الذنب حاشا لله، وإنما هو بيان لحقيقة الإنسان وحقيقة ربه: الإنسان خطّاء بطبعه، والله غفور بصفته. ومن أراد الله أن يظهر فيه صفة المغفرة فلا بدّ أن يكون ثمة من يُذنب ويستغفر، لتظهر هذه الصفة في الوجود.

والمقصود أن لا يقنط الخطّاء، وأن لا يتعالى المطيع. فالمطيع يعلم أنه لولا فضل الله ما استقام، والمذنب يعلم أن لا ملجأ له إلا ربه. وبين هذين العلمين يستقيم القلب: لا يأمن مكر الله، ولا يقنط من رحمته.

ستر الله وكشفه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمَجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

رواه البخاري ومسلم

المعصية في الخفاء ذنبٌ بين العبد وربّه، قد يتوب منها فيستر، وقد يخذله هواه فيبقى في الستر؛ أما المجاهرة فهي تحويل الذنب من خطأ شخصي إلى تشجيع عام وتهوين لحرّمات الله. وهي فوق ذلك استخفافٌ بنعمة الستر التي أنعم الله بها.

فمن ابتلي بذنبٍ فليستر نفسه وليتب بينه وبين ربه، ولا يفضح نفسه ولا يعلنه ولا يتفاخر به. وهذا من أعظم أبواب الرحمة: أن الله يستر ما لا يستره العبد، فلا يفرح الإنسان بكشف ما ستره الله.

قاتل المائة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجلٍ عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء...».

رواه البخاري ومسلم

يمضي الحديث بعد ذلك ليخبر أن الرجل انطلق إلى الأرض الصالحة فأدركه الموت في منتصف الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فأمر الله أن يُقاس ما بين الأرضين، فوجد أقرب إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية أن الله أوحى إلى هذه أن تقرّبي وإلى هذه أن تباعدي.

ما أكثر ما في هذه القصة من عبر! فقد أخطأ الراهب إذ ضيق رحمة الله فأفقي بغير علم، فكان جاهلاً في ثوب عابد، وأصاب العالم إذ وسّعها وأرشد إلى ما يُعين على التوبة: أن يغادر بيئة الذنب إلى بيئة الصلاح. فالتوبة النصوح لا تتم بالكلمة وحدها، بل بتغيير البيئة التي تُعيد إلى الذنب.

أُذنب عبدي

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «أُذنب عبدٌ ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي ربّ، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب... اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك».

رواه البخاري ومسلم

وليس معنى «اعمل ما شئتَ» الإذن بالمعصية، بل هو بشارة لمن كلّما أذنب تاب توبةً صادقة، ولم يستمرّ على الذنب: فإن الله يغفر له كل مرة، ما دام يعود إلى باب ربه ويعلم أن له رباً يغفر ويؤاخذ. فالعبرة بصدق العودة في كل مرّة، لا بكثرة السقوط.

وفي الحديث تعليمٌ لأدب التوبة: أن يعلم العبد أن له رباً يؤاخذ فيخاف، وأنه يغفر فيرجو. فمن اجتمع له الخوف والرجاء لم يكن سقوطه نهاية، بل كان سبباً لقربٍ أعمق، إذ لا يعرف الإنسان قدر عفو ربه حتى يحتاج إليه.

مكفّرات بين الصلوات

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات ما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر».

رواه مسلم

جعل الله للإنسان محطّاتٍ منتظمة يتطهّر فيها: خمس مرات في اليوم، ومرة في الأسبوع، ومرة في السنة؛ فلا يتراكم عليه الذنب بل يُنقى أولاً بأول. وهذا من رحمة الله أن لم يترك عبده يحمل ذنوبه سنين طويلة.

وقيّد الحديث التكفير باجتناب الكبائر، وفيه أن الصغائر تُكفّر بهذه الأعمال، أما الكبائر فتحتاج إلى توبة خاصة. فلا ينبغي أن يستهين الإنسان بالكبائر مطمئناً إلى صلاته، ولا أن ييأس من الصلاة إذا كثرت صغائره. وتلك موازنةٌ عادلة بين الرجاء والحذر.

الفصل الرابع: علاقتك بالعبادة



العبادة ليست حملاً يُحمل، ولا ضريبة تُدفع؛ هي غذاءٌ للروح كما أن الطعام غذاءٌ للبدن. وكما أن الجسد يمرض إن انقطع عنه الغذاء، فالقلب يذبل إن انقطعت عنه العبادة، ولو لم يشعر صاحبه أول الأمر.

وقد جاء الهدي النبوي في العبادة وسطاً بين غلوّ يُضني ويقطع، وتفريطٍ يُهمّل ويُضيع؛ فهو يربّي العابد على أن يمشي طويلاً لأنه يمشي بقدر.

أركان البناء

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

رواه البخاري ومسلم

عبر النبي ﷺ بالبناء، والبناء له أساس وأعمدة وسقف؛ فالشهادتان أساس تُرفع عليه الجدران، والأركان الباقية أعمدة لا يقوم البيت بغيرها. ومن أراد سكنى هذا البيت فعليه أن يُكمل أركانه، لا أن يتخير منها ما يناسب مزاجه.

وفي هذه الخمس توازنٌ عجيب: صلاة تُصلح الروح، وزكاة تُصلح المال، وصيام يُصلح الشهوة، وحجّ يجمع ذلك كله في رحلة واحدة. فكأن الإنسان لا يُترك في جانب من جوانبه بلا تهذيب.

الصلاة نهر على الباب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يحو الله بهن الخطايا».

رواه البخاري ومسلم

ضرب النبي ﷺ المثل من حياة الناس، فجعل الصلاة نهراً جارياً على الباب، لا يحتاج الإنسان إلى رحلة ليلغوه، ولا إلى مشقة ليتزود منه. وكما أن الغبار يتراكم على الجسد في اليوم الواحد ولا يُزال بغسلة شهرية، فكذلك الغفلة تتراكم على القلب في يومه، فُشّرت له غسلات متقاربة.

فمن ترك الصلاة ترك الماء، وبقي في درنه يظن أنه نظيف لأنه اعتاد رائحته.
وأكثر الناس لا يعرفون كم هم متسخون حتى يغتسلوا.

الطهور شرط الإيمان

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور
شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ (أو
تملاً) ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر
ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك...».

رواه مسلم

كل جملة في هذا الحديث لوحة: الصلاة نور يُضيء الدرب في الظلمة، والصدقة
برهان على صدق الإيمان كما يكون البرهان على صحة الدعوى، والصبر ضياء لأن
صاحبه يرى به في الليالي السود. فكأن أبواب الخير جميعاً أنوار على طريق واحد.
وأما الطهور فجعله شرط الإيمان لأن في الطهارة تهيئةً للقاء الله، ولأن الحس
يقود المعنى: من تعود النظافة الظاهرة تهيأت نفسه للنظافة الباطنة. ثم ختم
الحديث بكلمة عظيمة: القرآن حجة لك أو عليك؛ فلا موضع فيه للمنزلة الوسطى.

القليل الدائم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ». وقال ﷺ لما رأى من يشدّد على نفسه: «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا».

رواه البخاري ومسلم

كم من إنسان بدأ بدايةً كالسيل، ثم انقطع كما ينقطع السيل، وكم من آخر مشى مشية الساقية، فروى الأرض. والاستمرار هو علامة الصدق؛ فإن الحماسة تصنعها للحظة، أما الدوام فتصنعه النية.

وفي الحديث حكمةٌ نفسية: أن الله يحبّ أن يعبدّه الإنسان وهو مُقبل لا مُكره، وأن لا يتحوّل التقرب إلى عبء يُكره. فمن أراد أن يبقى قلبه حاضراً فليأخذ من العبادة ما لا يملّه، وليتدرّج في الزيادة ما دام قادراً.

الدين يُسر

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يُسر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

رواه البخاري

شبه النبي ﷺ حياة المؤمن بسفر طويل، والمسافر الحكيم لا يركض ركضاً ثم يسقط، وإنما يوزع الجهد على المراحل: أول النهار وآخره وشيء من الليل. فمن شاد الدين غلبه الدين، أي عجز وتوقف، فكان في عنائه خسارة.

وليس التيسير ترخّصاً في الأصول، بل هو فقه بطائع النفوس: أن الله لم يكلف عباده إلا بما يطيقون، وأن الطريق إلى الكمال يمرّ بالاعتدال. وكم ضاع من الناس بين فاتر لا يتحرك ومتحمّس لا يستمر!

صيام يُغفر به ما سلف

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه».

رواه البخاري ومسلم

قيد الحديث الصيام بقيدتين: الإيمان، أي أن يصوم لأنه يصدق بأمر الله، والاحتساب، أي أن يطلب الأجر عند الله لا عند الناس. فمن جاع وعطش بلا إيمان ولا احتساب فقد ناله الجوع ولم ينله المعنى.

وفي رمضان تُتاح للإنسان فرصةٌ نادرة: أن يرى كم هو قادر على ترك ما ظنّه ضرورة؛ فمن ترك الطعام والشراب نهراً لله، عرف أنه يستطيع أن يترك ما سواههما. وكان الشهر مدرسةً تُعلّمه أن إرادته أقوى من عاداته.

وضوءٌ يغسل الذنوب

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره».

رواه مسلم

الوضوء ليس غسلاً للجسد فحسب، بل هو تجديدٌ للصلاة؛ يقف المسلم أمام الماء كل يوم عدّة مرات فيمّر الماء على أعضائه، وتمرّ معه الخطايا. وقد بلغ من دقّة هذا الوصف أن الخطايا تخرج حتى من تحت الأظفار، حيث لا تصل العين.

ومن تأمل علاقة الطهارة بالصلاة عرف أن الإسلام لا يفصل بين النظافة والتقوى؛ فلا يُقبل الدخول على الله بدنٍ دنس، كما لا يُقبل بقلبٍ دنس. فإحسان الوضوء هو أول خطوة في إحسان الصلاة.

أحبّ العمل إلى الله

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أحبّ إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أيّ؟ قال: «ثم برّ الوالدين». قلت: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

رواه البخاري ومسلم

ثلاثة أعمال جمعت بين الله والوالدين والأمة: الصلاة التي هي صلة العبد بربه، وبرّ الوالدين الذي هو صلته بأصله، والجهاد الذي هو صلته بجمعه ودينه. فكأن الدين دوائر ثلاث تنتهي إلى مركز واحد.

وقيّد الصلاة بوقتها لأن المحافظة على الموعد هي ما يُميّز المحبّ من المتكلّف؛ فمن أّخر الصلاة عن وقتها وقد دخل، أّخر لقاء ربه لأجل ما ظنّه أهمّ. وما من شيء أهمّ من الموعد مع الله.

خيرٌ من الدنيا

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها».

رواه مسلم

ركعتان خفيفتان تُصَلَّيان في الظلمة قبل الفجر، فيجعلهما النبي ﷺ أعظم من الدنيا بأسرها، بما فيها من قصور وأموال وملك. وكأنه يقول إن ميزان القيمة عند الله ليس بحجم الشيء، بل بثقل ما فيه من إخلاص.

ومن علمنا هذا الوزن علمنا ألا نستخفّ بالقليل من الطاعة؛ فربما كانت ركعتان في ساعة غفلة الناس أثقل في الميزان من أعوامٍ من اللهو. وما أجمل أن يبدأ الإنسان يومه بما هو خيرٌ من الدنيا قبل أن يدخل فيها!

الفصل الخامس: علاقتك بدعائك وذكرك



الدعاء حديثٌ بين العبد وربّه لا ينقطع، والذكر استحضارٌ لحضرته في كل حال؛ وبهما يبقى القلب حيّاً يتنفس. ومن عرف قدر هذين البابين علم أن أعظم أبواب القرب مفتوح على مصراعيه، يدخل منه كل أحدٍ بلا إذن ولا واسطة.

وفي أحاديث الصحيحين من الأذكار والأدعية ما يجعل المؤمن قادراً على أن يملأ يومه كله صلةً بالله، في قيامه وقعوده وفرحه وحزنه، فلا يحتاج إلى وقتٍ خاص ولا مكانٍ خاص ولا حالٍ خاصّة.

ينزل ربنا

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟».

رواه البخاري ومسلم

يُمرّ الناس في هذه الساعة نياماً، وربّهم يُنادي: هل من سائل؟ هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ فما أشدّ غفلة من يضيّع هذا الموعد! هو وقتٌ تهدأ فيه الدنيا وتخفّ فيه الأصوات، ويصير القلب أقرب إلى الخشوع، فتصفو الدعوات.

ونحن نؤمن بنزوله سبحانه نزولاً يليق بجلاله، دون تكيف ولا تشبيه، والمقصود في الحديث هو الحثّ على اغتنام هذه الساعة. وما أجملها دعوة لمن أثقلتته الهموم: أن يقوم في سكون الليل، فيُفْضي إلى ربّه بما لا يُفْضي به لأحد!

لا يعجل

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يُستجب لي».

رواه البخاري ومسلم

يغفل كثير من الناس عن أن الدعاء قد يُستجاب في أشكالٍ لا يتوقعونها، أو في وقتٍ غير الذي يريدونه؛ فيستعجل أحدهم ويقول: دعوتُ فلم يُستجب لي، فيترك الدعاء. وهذا هو الخسران المبين، أن يُغلق على نفسه باباً كان مفتوحاً.

فالدعاء عبادة قبل أن يكون وسيلة، وفي ثباته على الدعاء دليلٌ على صدق عبوديته. وإذا أُنْخِرَ الله الإجابة فلحكمةٍ يعلمها، قد يكون ادّخاراً لك في الآخرة، أو دفعاً

لسوءٍ عنك، أو استبدلاً بخيرٍ منه. فاصبر على الدعاء، فإن الباب لا يُغلق في وجه من يطرق.

الحَيِّ والمَيِّت

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثلُ الذي يذكرُ ربَّه والذي لا يذكرُ ربَّه، مثلُ الحَيِّ والمَيِّت».

رواه البخاري

وصف النبي ﷺ الغافل عن الذكر بالميت، وإن كان يمشي ويأكل ويتكلم؛ لأن الحياة الحقيقية حياة القلب، وما حياة القلب إلا بذكر ربّه. فكم من حيٍّ في الظاهر ميتٌ في الباطن، وكم من ميتٍ في الظاهر حيٌّ بأثر ذكره.

والذكر لا يحتاج إلى مقدمات: لسانٌ يتحرّك وقلبٌ يحضر، فيصير الإنسان في صلة دائمة. وهو أيسر الأعمال وأعظمها أثراً، لأنه يطرد الغفلة التي هي أصل كل ذنب. ومن أدام الذكر أحسّ بأن الدنيا لم تعد تثقله.

سيد الاستغفار

عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة».

رواه البخاري

هذا الدعاء جامع لأركان التوبة كلها: إقرار بالربوبية، وبالعبودية، وبالعهد، واعتذار عن العجز عن الوفاء به، ثم اعتراف بنعمة الله وبذنب العبد، وطلب للمغفرة. فمن حفظه وأتقن معناه جمع بين التوحيد والانكسار في كلمات.

وسماه النبي ﷺ «سيد» لأنه أعلى صيغ الاستغفار وأشرفها. وجعل شرط فضله اليقين، أي أن يقولها وهو مستحضر لمعانيها، لا مجرد ألفاظ تجري على اللسان. فمن أراد أن يبدأ يومه ويختتمه بما يُرضي ربه فليجعل هذا الدعاء ورداً لا يفارقه.

كنز من كنوز الجنة

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

رواه البخاري ومسلم

في هذه الكلمات اعتراف بأن العبد لا يملك لنفسه حركة ولا قوة إلا بمعونة ربه؛ فهي إعلان للفقر إلى الله وللتبرؤ من الحول والقوة الذاتيين. وما أجمل أن يتحرر القلب من وهم القدرة ليرتاح في ظل القدرة الكبرى!

وسماها كنزاً لأنها تُدخر وتُجمع بلا مشقة، ولأن أثرها في النفس يتجاوز ألفاظها: فن قالها بصدق ذهب عنه الخوف من الناس والتعلق بالأسباب. فهي دواء للهموم والعاجز والخائف، يُقال في كل حاجة ويُنال بها كل قوة.

آمين ولك بمثل

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملكٌ مُوَكَّل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك المُوَكَّل به: آمين، ولك بمثل».

رواه مسلم

أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاؤك لغيرك حيث لا يراك ولا يسمعك، لأنه أخلص ما يكون من الشوائب: لا رياء فيه ولا مجاملة ولا طلب مقابل. فيؤمن عليه ملكٌ موكلٌ بك، ثم يعود إليك مثل ما دعوت لأخيك.

وهنا تدخل الأنانية في ميزان عجيب: من أراد الخير لنفسه فليدعُ لغيره! فإن دعوتك لأخيك تستجلب لك مثلها بدعاء ملك، فهي أنفع الأعمال لمن يُحسن التدبير. وما أجمل أن يكون في صدرك هذا الجانب الخفي من الإحسان!

وهو ساجد

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء».

رواه مسلم

أعلى ما يبلغه الجسد من الخضوع أن يضع أشرف أعضائه، وهو وجهه، على أحس ما في الأرض وهو التراب؛ فإذا فعل ذلك تلاقى الأعلى بالأسفل، فصار أقرب ما يكون إلى ربه. وكأن القرب يُنال بالنزول لا بالارتفاع.

وهذا من أعمق ما في الإسلام من أسرار: أن العلو الحقيقي في التواضع، وأن العزة الحقّة في الخضوع لله. فإذا أردت أن تتكلم مع ربك بكل ما في صدرك

فاسجد، وأطل السجود، وأكثر من الدعاء؛ ففي هذه الهيئة يسمع الله، ويقرب.

الفصل السادس: علاقتك بأخلاقك



الأخلاق هي العلاقة التي تتجلى فيها كل العلاقات؛ فإن حُسن الخلق هو الثوب الذي يلبسه الإيمان إذا خرج إلى الناس، ومن لم يُحسن ثوبه لم يعرف الناس ما تحته. وما من علاقةٍ يصلح أمرها إلا بنصيبٍ من الخلق، ولا تفسد علاقةٌ إلا لنقصٍ فيه.

وقد جعل النبي ﷺ حُسن الخلق من أثقل ما يوضع في الميزان، وجعله دليلاً على سلامة القلب، وسبيلاً إلى محبة الله ومحبة الناس. ولعلك تجد في هذه الأحاديث مرآةً تنظر فيها إلى نفسك: أين أنت من الصدق، ومن الحياء، ومن الرفق، ومن الحلم؟

أحسنكم أخلاقاً

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «إِنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقاً».

رواه البخاري ومسلم

جعل النبي ﷺ مقياس الخيرية في الخلق، لا في المال ولا في النسب ولا في الشهادة العلمية؛ فالخير هو الذي يحسن معاملة الناس. وقد وصف الراوي أخلاقه ﷺ بالنفي أولاً: ليس فاحشاً ولا متفحشاً، أي لا يفعل الفحش ولا يتكلف قوله، فكان أول الخلق ألا تؤذي.

وإنما كان الخلق ميزان الخيرية لأنه الجزء من الدين الذي يمسّ الناس مباشرة؛ فقد يستر الإنسان علاقته بربه عن الخلق، لكنه لا يستطيع أن يستر خلقه. ومن هنا كان أصدق مرآة تعكس الباطن.

الصدق يهدي

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

رواه البخاري ومسلم

الصدق والكذب طريقان لكل منهما سلسلة منازل، تنتقل بصاحبها من واحدة إلى التي بعدها بلا انتباه: الصدق يقود إلى البرّ، والبرّ إلى الجنة؛ والكذب يقود إلى الفجور، والفجور إلى النار. فالمسألة ليست في كذبة واحدة، وإنما في اتجاه تسير فيه النفس.

وفي لفظ «يتحرّى» سرُّ نفسي: أن الصادق يطلب الصدق ويتحرّاه حتى يصير سجيّة، والكاذب يتحرّى الكذب حتى يصير عادة لا يشعر بها. فمن أراد أن يكون صديقاً فليبدأ بأصغر كذبة يتركها اليوم؛ ومن أراد أن يكون كذاباً فلن يحتاج إلى أكثر من التساهل في الصغائر.

الحياء خير كله

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير». وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «الحياء من الإيمان».

رواه البخاري ومسلم

الحياء انقباض النفس عن القبيح مخافة اللوم، وهو أرقّ شُعَب الإيمان وأدقّها؛ فإذا نزع الله من العبد الحياء فتح له أبواب كل شر، لأنه لم يبقَ ما يمنعه من الداخل. وما ردع الناس عن كثير من الفواحش قانونٌ ولا شرطي، بل حياءٌ في القلوب.

ولا يكون الحياء ضعفاً ولا عجزاً عن قول الحق، كما يظنّ البعض؛ فمن استحيّا من الله فلن يستحيي من قول الحق للناس. وإنما هو الاستحياء من فعل ما يُنجل، لا من فعل ما يُشرف. والحياء الذي يمنع من الحقّ ليس حياءً، بل جبنٌ يتخذ اسماً شريفاً.

بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَرٍ». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبر بطرُ الحقِّ وغمَطُ الناسِ».

رواه مسلم

ظنّ الرجل أن حبّ الجمال في اللباس هو الكبر، فجاء التعريف النبوي يفصل بين الجمال والكبر: الجمال في الهيئة مباح بل محبوب، أما الكبر فهو سلوكان: أن تردّ الحق إذا جاءك من غيرك استكباراً، وأن تحتقر الناس وتراهم دونك.

وما أدقّ هذا الميزان! فقد يلبس رجلُ الثياب البالية وهو متكبرٌ على خلق الله، وقد يلبس آخر الحرير وهو متواضع القلب. فالعبرة ليست بالظاهر، بل بما يقع في الصدر حين تُعرض عليك الحقيقة، وبمن تراه حين تنظر إلى الفقير والضعيف.

الرفق زينة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ». وقال: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

رواه مسلم

نسب الله إلى نفسه الرفق، وجعل ثمرته أعظم من ثمرة العنف؛ فمن رفق في أمره نال ما لا ينال القاسي. وقد جرب كل مربٍّ ومعلِّمٍ ومديرٍ وأبٍ أن الحزم المكسور بالرفق يفتح من القلوب ما لا يفتحه الصراخ والتهديد.

والرفق زينة لا يُضاف إلى شيء إلا حسنه: يُجمل الكلمة والأمر والنصح والعقاب والخلاف. وإذا نُزع من شيء أفسده حتى لو كان صواباً في أصله. وكَم من حقٍّ ضاع لأن صاحبه قاله بغير رفق!

آية المنافق

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ».

رواه البخاري ومسلم

ثلاثٌ تجمع ما به يحتلّ بناء الثقة بين الناس: الكلمة، والوعد، والأمانة. فإن صدقت في حديثك ووفيتَ بوعدك وحفظتَ ما أوثمتَ عليه، بنيتَ في قلوب الناس بيتاً لا يهدم؛ وإن أخللتَ بواحدةٍ منها تصدّع.

والتعبير بالآية يعني العلامة، فمن اجتمعت فيه الثلاث كان أشبه بالمنافق في خلقه وإن صليّ وصام. وليس المراد التكفير، بل التحذير من سلوكٍ يُشبه سلوك المنافقين، فيتعاهد المؤمن نفسه ويتوب مما بدر منه.

الحلم والأناة

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأشجّ عبد القيس: «إنّ فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».

رواه مسلم

الحلم قدرةٌ على ضبط النفس حين يُستفز المرء، والأناة تمهّلٌ قبل أن يقرّر ويفعل؛ وهما جناحان للعاقل: الأول يمنع من الغضب، والثاني يمنع من العجلة. ومن اجتمعا فيه قلّت أخطاؤه وكثرت حسناته.

وقد وصف النبي ﷺ بهما رجلاً جاء إليه من بلدٍ بعيد، فأحسّ بأن الله يحبّ ما فيه؛ وهذا يعلمنا أن الخلق الحسن قد يكون سبباً في محبة الله لا يعلمها صاحبها. فما أسعد من كان في طبعه ما يحبه الله، وما أحوجنا إلى أن نُنمّي هذه الطباع بالتمرّن والصبر!

الفصل السابع: علاقتك بصبرك وابتلائك



الدنيا دار ابتلاء، ما من أحدٍ يخرج منها بلا نصيبٍ من الألم؛ فمنهم من يُبتلى في ماله، ومنهم في بدنه، ومنهم في أحبّته، ومنهم في قلبه. والفرق بين الناس ليس في وقوع البلاء، بل في ما يفعله كلُّ منهم حين يقع.

وقد علّمنا النبي ﷺ أن الصبر ليس خضوعاً يائساً، بل هو عبادةٌ يُكتب لها الأجر، وأن البلاء حين يُستقبل بالإيمان يتحوّل من محنةٍ إلى منحة، ومن عقوبةٍ ظاهرة إلى رحمةٍ مستترة.

حتى الشوكة

عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يُصيب المسلم من نصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ ولا حَزْنٍ، ولا أذىٍ ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها».

رواه البخاري ومسلم

ما أدقّ هذا الإحصاء! لم يترك النبي ﷺ ضرباً من الألم إلا ذكره: من التعب البدني إلى الهمّ النفسي، ومن الأذى المادي إلى الغمّ المعنوي، حتى أصغر ما يمكن: شوكة تدخل في القدم. وكل ذلك لا يضيع، بل يُحتسب تكفيراً للخطايا ورفعاً للدرجات.

وهذا يغيّر نظرة المؤمن إلى آلامه: فبدل أن يرى فيها مصيبة بلا معنى، يراها ثمناً يُدفع من رصيد ذنوبه، فتخفّ عنه وطأتها. فما أعظم دين يجعل من الألم عملة مقبولة، ومن الجرح تكفيراً!

الصدمة الأولى

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري». قالت: إليك عني، فإنّك لم تُصّب بمصيبتي - ولم تعرفه - ف قيل لها: إنه النبي ﷺ، فأنت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

رواه البخاري ومسلم

ردّت المرأة النبي ﷺ بجفاءٍ لأنها لم تعرفه، ولأن المصاب لا يحتمل النصيحة في لحظة؛ ولم يغضب عليها، بل انتظر حتى جاءت معذرةً، فعلمها قاعدةً خالدة:

الصبر الحقّ هو الذي يكون عند أول الصدمة، حين تكون النفس أشدّ ما تكون اضطراباً.

ففي أول لحظة يتبيّن معدن الإنسان: أيصيح ويسخط أم يسترجع ويسلم؟ فإن ثبت في الصدمة الأولى هانت عليه ما بعدها؛ لأن الجزع إذا استقرّ في القلب تعاضم مع الأيام، والصبر إذا بُني في اللحظة الأولى ثبت صاحبه على الدوام. ومن جميل خلق النبي ﷺ أنه لم يُعاتب من ردّته، بل قبل اعتذارها.

يصب منه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يُصب منه».

رواه البخاري

كلمة قد تصدم من يسمعها لأول وهلة: كيف يكون إرادة الله الخير بعبدته إصابته بالبلاء؟ ولكن من فهم معناها أدرك أن المصائب صقل للمعدن: كما تُنقى الفضة بالنار، ويُهذّب الحجر بالطّرق، فإن الله يصيب من يحبّ ليرفعه.

وليس في الحديث دعوةً إلى طلب البلاء ولا الفرح به، فقد نهينا عن تمّني لقاء العدو وسؤال الله العافية. وإنما هو مواساة للمبتلى: أن مصابه ليس دليل غضب،

بل قد يكون علامة محبة. فلا يسيء الظنّ بربه، ولا يقول: لماذا أنا؟ بل يقول:
ماذا يريد الله أن يعلّمني؟

أوسع عطاء

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول
الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال: «ما
يكون عندي من خيرٍ فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يُعفّه الله، ومن
يستغن يُغنّه الله، ومن يتصبر يُصبره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً
وأوسع من الصبر».

رواه البخاري ومسلم

بعد أن أعطى النبي ﷺ كل ما كان عنده، وجّههم إلى العطاء الذي لا ينفد:
عطاء الله للصابر. فمن تعفّف أعفّه الله، ومن استغنى أغناه، ومن تصبّر - أي
تكلّف الصبر وتدرّب عليه - صبره الله. فكل خصلةٍ منها تُتمّى بالممارسة، والله يعين
من يبدأ.

ولفظ «يتصبر» دقيق: فهو يدلّ على أن الصبر قد يكون في البداية تكلّفاً، يفرضه
الإنسان على نفسه بمشقة، ثم يصير خلقاً لا يحتاج إلى جهد. فمن أراد أن يكون

صبوراً فليبدأ بالتصبر، ومن ثابر عليه جاءه عون الله حتى يصير الصبر سجيّةً له. وليس عطاءً أوسع من هذا لأنه يُعطي صاحبه قوةً تحميه من كل ما سواه.

أجرني في مصيبي

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيراً منه: رسول الله ﷺ.

رواه مسلم

كلماتٌ قليلةٌ تحوّل المصيبة إلى مدرسة: «إنا لله» إقرارٌ بالملك، فنحن وما نملك لله؛ «وإنا إليه راجعون» إقرارٌ بالمصير، فكل ما فُقد هنا سيُجمع عليه هناك؛ ثم دعاء الأجر والخلف يربط الألم بالرجاء. فيخرج المصاب من لحظة الفقد بقلبٍ ممتلئ لا فارغ.

وقصة أم سلمة تُلخص معنى الحديث: فقدت زوجاً صالحاً فحسبت أن لا خير بعده، ثم قالت ما أمرت به فأخلف الله لها خيراً لم تكن تتخيله. وهذا ما يحدث لكل من يُسلم قلبه لأمر الله: يعوّضه الله بما لا يخطر له على بال.

ما أخذ وما أعطى

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه تدعوه وتُخبره أن صبيًّا لها في الموت، فقال للرسول: «ارجع إليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكلُّ عنده بأجلٍ مسمًى، فُرها فلتصبر ولتحتسب».

رواه البخاري ومسلم

ما أعظم هذه الكلمات! يقولها النبي ﷺ لابنته وهي تشهد ابنها يحتضر، فلا يتكلف ولا يزيد: كل ما نملك عارية، أخذه من أعاره ونحن غير مالكين؛ وكل شيء عند الله بوقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر. فمن عرف هذا هان عليه الفقد.

وقد دمت عينا النبي ﷺ حين حُمل إليه الصبيّ، فلما سأله سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده». فالصبر ليس جمودًا ولا قسوة، بل هو بكاءٌ بلا اعتراض، وحزنٌ بلا سخط. وقد جمع النبي ﷺ بين الدمة والتسليم، فعلّمنا أن الإيمان لا يمنع الإنسانية.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كُتِبَ له مثلُ ما كان يعمل مقيماً صحيحاً».

رواه البخاري

من كانت له عادةٌ في الخير ثم عاقه مرض أو سفر عن مواصَلتها، لم يُضَيِّعَ الله له أجرها، بل كتبه له كاملاً كأنه عمل. وهذا من رحمة الله بمن كان صادقاً في عزمه ولم يخذله إلا العجز.

وفي الحديث حُتُّ على المحافظة على الأعمال الصالحة في أيام الصحة والفراغ، فإنها رصيدٌ يُصرف منه عند العجز. ومن كان له رصيدٌ من الطاعة وجد الله يعوّضه عند الضعف؛ ومن كان رصيده فارغاً لم يجد ما يُصرف. فاستكثر من الخير ما دمت قادراً.

الفصل الثامن: علاقتك بجسدك وصحتك



الجسد وديعةٌ عندك وليس ملكاً لك تتصرّف فيه كيف شئت؛ هو المطيعة التي تملكك إلى الطاعة، والآلة التي تعمل بها وتتعبّد، والبيت الذي تسكنه الروح. ومن أهمّله خسر أول أدوات خدمته لربه، ومن عبده خسر روحه.

وقد كان هدي النبي ﷺ في الجسد هدي اعتدالٍ ونظافة ووقاية: لا إفراط في العبادة حتى يعجز البدن، ولا تفريط في العناية حتى يمرض، ولا استهتار بالأوبئة ولا خوفٍ هستيري منها. وفي هذه الأحاديث ما يصلح أن يكون ميثاقاً للصحة العامة قبل أن تُعرف هذه التسمية.

إن لجسدك عليك حقًا

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا».

رواه البخاري

كان الشاب متحمسًا يريد أن يستغرق عمره في العبادة، فجاءه التوجيه النبوي يرده إلى الاعتدال: الجسد له حق، والعين لها حق، والزوجة لها حق. فلا تهلك بدنك بالعبادة المفرطة، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

ومن حق الجسد: الغذاء المعتدل، والنوم الكافي، والراحة بعد التعب، والنظافة، والعلاج عند المرض. وكل ذلك داخل في العبادة إذا نوى صاحبه أن يتقوى به على طاعة الله. فمن أحسن إلى جسده أحسن إلى عبادته.

خمسة من الفطرة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الفطرة خمس: الختان، والاستحدا، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

رواه البخاري ومسلم

سمى النبي ﷺ هذه اخصال فطرة، أي ما فُطر عليه الإنسان من حبّ النظافة والتجمل؛ فالنظافة ليست ترفاً ولا عادةً اجتماعية، بل هي ميلٌ أصيل في النفس السوية، والإسلام يثبته ويجعله عبادة. وهذه الخمس بابٌ يُقاس عليه كل ما فيه نظافة الجسد.

ولعلّ في اقتران هذه الاخصال بالفطرة تذكيراً بأن القذارة انحرافٌ عنها، وأن الطبع السليم يميل إلى الطهارة. ومن تأمل ما تحمله الأظفار والشعر من الأوساخ والجراثيم أدرك أن في هذا الهدي وقايةً صحيةً قبل أن يكون أدباً اجتماعياً.

غَطُّوا الْإِنَاءَ

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السَّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ... فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحِلُّ سَقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً».

رواه مسلم

وجّه النبي ﷺ إلى حماية الطعام والشراب من الدخيل: غَطُّوا الْإِنَاءَ، اربطوا فم القربة، أغلقوا الباب. وفي هذا مراعاة لما يقع في الطعام المكشوف من غبار وحشرات وجراثيم، فالأمر وقاية صحية متقنة قبل أن يكون حكماً شرعياً.

وفي ذكر الشيطان تعليلٌ لا ينافي التعليل الصحي، بل يكمله: فما يُفسد الطعام والشراب من الأضرار الخفية هو من عمل الشياطين من الجنّ والإنس. وفي هذا الهدى أن الاحتياط عبادة، وأن الوقاية من الأذى طاعة، وأن من أهمل حفظ طعامه أهمل أمانةً أُنيّطت به.

لا تغمس يدك

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يده».

رواه البخاري ومسلم

يُعَلِّمُنا النبي ﷺ الاحتياط من الخفيّ: اليد قد تلامس في النوم ما لا يعلم صاحبها، فلا تدخل الإناء إلا بعد تطهير. وهذه قاعدة عامة في الاحتياط: أن تطمئنّ إلى الطهارة حيث يحتمل الشك، وآلاً تفترض النظافة بلا يقين.

وكم من وباءٍ يُنقل بيدٍ ظنّ صاحبها أنها نظيفة! وما أحوج الناس إلى هذا الأدب النبوي في ساعات الطعام والتعامل مع الأواني! فالنظافة هنا عبادةٌ تحفظ الجسد وتحفظ من يشاركه الطعام.

لا تبولن في الماء

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه».

رواه البخاري ومسلم

الماء الراكد يُخزّن ما يلقي فيه، ولا يجد من يغسله بجريانه، فإذا تلوث بقي تلوثه. فهى النبي ﷺ عن تلويثه، لأن صاحبه سيحتاج إليه غداً، ولأن غيره قد يحتاج إليه أيضاً.

وهذا من أقدم ما قيل في حماية مصادر المياه، قبل أن تُسنّ لها القوانين وتُنشأ لها الهيئات. وفيه أن حرمة الماء العامّ حرمةٌ لحقّ الناس جميعاً، وأن النظافة ليست شأنًا فردياً بل مسؤوليةٌ جماعية.

إذا سمعتم بالطاعون

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

رواه البخاري ومسلم

هذا هو الحجر الصحي في أبلغ صورته: لا يدخل أحدٌ إلى الأرض الموبوءة فيصيبه، ولا يخرج منها من فيها فينقل العدوى إلى غيرهم. فجمع النبي ﷺ بين حماية الأصحاء وحماية المرضى، وبين الأخذ بالأسباب والتسليم لقدر الله.

ولم يقل: اتركوا الأمر على التوكل، ولا قال: اهربوا من القضاء، بل أمر بالتوازن: خذوا بالأسباب ولا تنسوا أن الأمر لله. وكم من أمةٍ هلكت لأنها أهملت الاحتياط أو بالغت فيه حتى هلكت بالذعر! وهذا الحديث يُنقذ من الطرفين.

لكل داءٍ دواء

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً».

رواه البخاري

في هذه الكلمات القليلة أملٌ يملأ القلب: كل داءٍ له دواء، وإن جهله الناس زماناً. وهذا ما يدفع الأطباء والباحثين إلى الصبر على المخاطر والتجارب، لأن الوعد الإلهي أن الشفاء موجود، وما على الإنسان إلا أن يبحث.

وفي الحديث توجيهٌ لا يقل أهميةً عن البشرية: أن التداوي مشروع، وأنه لا يتنافى مع التوكل، بل هو من تمامه. فمن مرض فعليه أن يطلب الدواء كما يطلب الرزق،

ثم يُفَوِّضُ أمر الشفاء إلى الله الذي أنزل الداء وأنزل الدواء.

لا يتنفس في الإناء

عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء».

رواه البخاري ومسلم

من أدب الشرب أن يبعد الإنسان الإناء عن فمه ليتنفس، فلا يخلط نفسه بالماء الذي يشاركه فيه غيره. وهو أدبٌ يحمي من انتقال العدوى بين الناس، ويحفظ للمشروب نظافته.

وهكذا تتضح الصلة بين الأدب والصحة: فكل أدبٍ في الإسلام يحمل في طياته حماية للناس؛ لأن الدين الذي جاء لإصلاح القلوب جاء كذلك لإصلاح الأبدان. ومن تأمل أحاديث الطعام والشراب وجدها كتاباً متكاملًا في الصحة العامة.

سَمَّ الله وكل مما يليك

عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنتُ غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصَّحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمَّ الله، وكلَّ بيمينك، وكلَّ مما يليك».

رواه البخاري ومسلم

لم يعنّف النبي ﷺ الغلام ولم يصرخ عليه، بل علّمه برفق ثلاثة آداب في جملة واحدة: ذكر الله في بداية الطعام، واستعمال اليمين، والأكل مما يليه. وهذا من أجمل أساليب التربية: التصحيح المباشر المقرون بالمودة.

وكلّ أدبٍ منها يحمل معنى: التسمية شكرٌ لواهب الرزق، واليمين تكريمٌ للطعام، والأكل مما يليك احترامٌ لمن يشاركك المائدة ولئلاّ تمدّ يدك فيما ليس أمامك. فالمائدة مدرسةٌ يتعلّم فيها الطفل كيف يكون إنساناً في حضرة الآخرين.

الفصل التاسع: علاقتك بأهلك



البيت هو المختبر الأول لأخلاقك؛ فيه تسقط الأقنعة، ويظهر الإنسان بما هو عليه، لأن أهله يرونه في غضبه وتعبه وساعة ضعفه. ومن حسن خلقه مع من لا يملك أن يفارقه، فقد حسن خلقه في الحقيقة.

وقد جعل النبي ﷺ حسن الصحبة مع الأهل علامةً على الخير، وجعل القطيعة بينهم من أكبر ما يُحرّم به العبد؛ فاجتمع في الأحاديث الرحمة بالوالدين، والإحسان إلى الزوجة، والرفق بالأولاد، وصلة الرحم.

الأم ثم الأم ثم الأم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «ثم أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «ثم أُمُّكَ». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك».

رواه البخاري ومسلم

ثلاث مرات ثم يأتي الأب! لم يكن هذا تقليلاً من شأن الأب، وإنما ميزانٌ لحجم العناء: حَمْلٌ وَوْضْعٌ وِرْضَاعٌ وَسَهَرٌ. فمن نظر إلى ما تتحمّله الأم في صمت، فهم لماذا كرّرت كلمتها قبل أن تذكر كلمة الأب.

وانظر إلى كلمة «صحابتي»: لم يسأل الرجل عمن يُنفق عليه، بل عمن يصحبه، فكأن الأمر في أصله معاشرة وحضور قبل أن يكون مალًا ونفقة. فالأم لا تريد الراتب، تريد أن تراك.

استوصوا بالنساء خيراً

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمته كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

رواه البخاري ومسلم

ليس في الحديث ذمٌّ للمرأة، فإن النبي ﷺ ختمه بالوصية بها مرتين، وإنما هو وصفٌ لطبيعة تختلف عن طبيعة الرجل، وتحتاج إلى الصبر لا إلى القسر. فالضلع يخني ليحمي القلب، وانحناءه ليس عيباً فيه بل هو وظيفته.

فمن أراد امرأةً على مقاسه كسرهما، ومن أحسن فهم طبعها عاش معها. والحياة الزوجية لا تُبنى على أن يتساوى الطرفان في الطباع، بل على أن يتقنا فنّ التعايش مع المختلف.

لا يَفْرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يَفْرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر».

رواه مسلم

«لا يَفْرَكُ» أي لا يبغض. وهذه قاعدة العدل في الحكم على الشريك: لا يوجد إنسان خالٍ من العيوب، ولا أحد يخلو من محاسن؛ فمن نظر إلى العيب وحده لم يرَ إلا ظلمة، ومن نظر إلى الميزان كله أبصر ما يُرضيه.

وهذا من أحكم ما قيل في الاستقرار الأسري: أن لا تتحول الخصلة المزعجة إلى حكمٍ على الشخص كله. ومن جعل في قلبه مكاناً للإنصاف، وجد في بيته ما يكفيه من الود.

النفقة على الأهل صدقة

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في حديثٍ طويل أن النبي ﷺ قال له: «وإنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجرتَ عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك».

رواه البخاري ومسلم

حتى اللقمة التي يضعها الرجل في فم زوجته يُكتب له بها أجر، إذا صدقت نيته. وبهذا لا يبقى في حياة البيت فعل صغير خارج دائرة العبادة؛ فالطعام والكسوة والمجلس والكلمة الطيبة، كلها يمكن أن تُرفع من العادة إلى القربة.

وما أشدّ ما يحتاج الإنسان إلى أن يعلم هذا! فإن كثيراً منا يظن أن العبادة تبدأ عند باب المسجد وتنتهي عند الخروج منه، والحقيقة أن أعظم مختبراتها هي المائدة التي يجتمع عليها أهله.

الرعاية مسؤولية

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته...».

رواه البخاري ومسلم

ليس الحكم حكراً على الملوك؛ فكل إنسان في مكانٍ ما راعٍ، له من يرعى ومن يُسأل عنه. فالأب راعٍ في مملكته الصغيرة، والأم راعية في عرشها الذي لا تراه العيون، والولد راعٍ في ما أُسند إليه من مال أبيه.

وبهذا يصبح البيت دولةً صغيرة لها دستور، وتكون التربية فيه ركناً في السياسة؛ فإن الأمم لا تُصلح من فوق، بل تُبنى من تحت، من الأسر التي تعلّم أبنائها ما هي الأمانة والمسؤولية.

من لا يرحم لا يرحم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبِلَ النبي ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم».

رواه البخاري ومسلم

كان الأقرع سيِّداً في قومه، يهابه الناس، لكنه ظنّ أن الهيبة لا تلتقي بالحنان. فجاء الجواب في ست كلمات كأنها قانون من قوانين الوجود: الرحمة التي تمنعها سُمّنع عنك؛ ومن يغلق قلبه على أولاده لا يتوقع أن تُفتح له القلوب.

وفي تقبيل النبي ﷺ لحفيده درسٌ لكل أب يظن أن الحزم يُضعفه إن لان: لقد كان أعظم خلق الله هيبَةً وأرقّهم قلباً، فلم يتعارض عنده الجلال مع الجمال.

صلة الرحم

عن جُبَيْر بن مُطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع».

رواه البخاري ومسلم

قال سفيان: يعني قاطع رحم. وأدنى ما يفهم من هذا الوعيد أن القطيعة ليست ذنباً صغيراً، إنما هي هدمٌ لأول رباط في بناء المجتمع، وسدُّ لأقرب باب للمودة. فمن قطع أقرب الناس إليه، فما الذي يضمن أنه سيصل الأبعدين؟

ولئن كانت الصلة ثقيلة أحياناً على النفس، فإن في الحديث الآخر ما يُخَفِّف: أن الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعته الله. فصلتك لهم ليست لهم وحدهم، بل هي وصلٌ لما بينك وبين ربك.

النبي في بيته

عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: «كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة».

رواه البخاري

المهنة هي الخدمة، فكان أعظم الخلق يكون في بيته كما يكون أحدنا: يعين ويحمل ويخطط ويحلب. لم تمنعه النبوة من الاشتغال بحاجة أهله، ولا منعه حاجة أهله من الاشتغال بالنبوة؛ فإذا سمع الأذان قام، فكان البيت والمسجد عنده طرفي عبادة واحدة.

ولو أنصف الناس لجعلوا هذا الحديث مرأةً يحاسبون بها أنفسهم قبل أن يتحدثوا عن الرجولة: فإن الرجل الذي يظن الخدمة في البيت عيباً في حقّه، يتوهّم أنه أرفع قدراً ممن كان يخدم أهله ويقود الأمة.

ستر من النار

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ابْتُلِيَ من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهنّ، كنّ له سترًا من النار».

رواه البخاري ومسلم

كلمة «ابْتُلِيَ» تُعبّر عن نظرة الجاهلية التي كانت ترى البنت عبثاً؛ فجاء النبي ﷺ يقلب المعنى، ويجعل الإحسان إليها سترًا من النار. فمن أحسن تربية بنته نال بها ما لم ينله بغيرها من المنازل.

وفي هذا تكريمٌ للمرأة ليس بالقول وحده، بل بالجزاء: أن جعل الله لها حقاً على أبيها ينقله من أن يكون صاحب سلطة إلى أن يكون صاحب مسؤولية. ومن تأمل حاضر الأمم رأى كيف أن إكرام البنات هو معيار حضارتها.

اعدلوا بين أولادكم

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نَحَلْتُ ابني هذا غلاماً كان لي. فقال: «أكلّ ولدك نَحَلْتَ مثله؟» قال: لا. قال: «فارجعه». وفي رواية: «فأتّقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

رواه البخاري ومسلم

ليس العدل بين الأبناء مسألة مال فحسب، وإنما هو شعور؛ فالطفل الذي يرى أخاه يُفَضَّل عليه يحمل في صدره جرحاً قد لا يندمل، وربما أورثه عداوةً لأخيه وحقداً على أبيه. وقد أمر النبي ﷺ بردّ العطفية صيانةً لقلوب الصغار.

وفي الحديث تنبيهٌ إلى أن الأبوة أمانة لا يجوز أن يُخَاز فيها لهوى ولا لجمال ولا لذكاء، فالله يرى من الأب ما يُخْفِيهِ الأب عن نفسه. ومن عدل في بيته سَلِمَتْ له أسباب كثيرة من الشقاء.

إِثْمٌ أَنْ تُضَيِّعَ مِنْ تَعُولٍ

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته».

رواه مسلم

كلمة «كفى» تدلّ على أن هذا الذنب وحده كافٍ لإيجاب الإثم، ولو لم يرتكب صاحبه غيره. ولا يُراد منه الإنفاق المادي فحسب، بل كل ما يقتات به من يعولهم الإنسان: الطعام والكساء والرعاية والاهتمام.

وما أكثر الذين يُغدقون على الخارج ويخلون على البيت! يُنفقون على أصدقاء الليل ويقترون على أهل النهار. والحديث يردّهم إلى الأصل: أن أول الصدقة وأحقّها هي ما تُنفقه على من وُكِّلَ برعايته.

الفصل العاشر: علاقتك بأصحابك وإخوانك



الصاحب صاحب، كما يقول الناس؛ فمن صاحبه يشدّك إلى نهجه شئت أم أيت. والإنسان ابن بيئته، ولكنه أكثر من ذلك ابن أصحابه، فهم الذين يشكّلون ذوقه وأفكاره وقيمه من حيث لا يشعر.

وقد جعل النبي ﷺ من الصحبة الصالحة سبباً لظُلّ العرش، وجعل المحبة في الله من أوثق عرى الإيمان. وفي هذه الأحاديث دعوةٌ لتختار أصحابك بعناية، وأن تكون لهم الصاحب الذي تحبّ أن يكونوا لك.

حامل المسك ونافع الكير

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلُ الجليس الصالح والجليس السّوء كحامل المسك ونافع الكير؛ فحاملُ المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة؛ ونافعُ الكير إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة».

رواه البخاري ومسلم

ضرب النبي ﷺ المثل بالرائحة لأنها تتسلل بلا استئذان: لا تحتاج إلى حديث ولا نصيحة، بل يكفي أن تجلس فتعطر أو تلوّث. فصاحبُ المسك يعطيك، أو تشتري منه، أو على الأقلّ تنال من عبيره، أما نانغ الكير فأقلّ ما فيه رائحةٌ كريهة، وأكثره حريقٌ في الثياب.

وما أصدق هذا في حياة الناس! فكم رأينا شاباً استقام لصحبة طيبة، وآخر انحرف لصحبة سيئة! ولا يكفي أن تقول: أنا قويّ لا أثأثر؛ فإن الرائحة تتسلل مهما كان الأنف ثابتاً. فاختر جليسك كما تختار طعامك، فإنه يدخل في قلبك كما يدخل الطعام في جسدك.

أنت مع من أحببت

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقة، ولكنّي أحبّ الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت».

رواه البخاري ومسلم

فرح الصحابة بهذا الحديث فرحاً ما بعده، لأنهم رأوا أن المحبة تبلغ صاحبها ما قصر عنه عمله. ومن أحبّ قوماً صالحين ورغب في أن يكون منهم، حشره الله معهم، ولو لم يبلغ منزلتهم في العمل.

ولكن ليس الحبّ دعوى تُقال، بل هو اتجاه حياة: فمن أحبّ النبي ﷺ اقتدى به، ومن أحبّ الصالحين شابههم. وإنما قال الرجل: لا كثير عمل، لأنه كان مقصراً؛ أما من فرط في العمل وادّعى الحبّ فلا يعتزّ. فالحبة الصادقة تدفع إلى العمل ولا تكون بديلاً عنه.

سبعةٌ في ظله

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يُظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله: الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقَالَ: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

رواه البخاري ومسلم

يوم تدنو الشمس من الرؤوس ويبلغ العرق بالناس مبلغاً، يُظِلُّ الله سبعةً في ظلّه؛ ومن بين السبعة رجلان لم يجمعهما نسب ولا مصلحة، إنما جمعهما حبّ الله: اجتمعا عليه، وإذا اقترقا اقترقا عليه. فما أعظم قدر صداقةٍ تكون خالصةً لله!

وفي ترتيب السبعة عبرة: من الإمام الذي يحكم الأمة إلى الباكي في خلوته، يتدرّج الحديث من العام إلى الخاص، ومن العلن إلى السرّ، فكأنّ الله يرى في كل موقع من مواقع الحياة باباً إلى ظلّه، ويفتح لكل نوعٍ من الناس سبيلاً إلى النجاة.

أين المتحابون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أُظِلُّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلا ظلّي».

رواه مسلم

ينادي الله على أهل المحبة في موقف الحشر نداءً خاصاً، كأنه يخصّهم بتكريم بين الخلائق: أين الذين أحبّوا بعضهم لأجل جلالي؟ لا لأجل مصلحةٍ ولا لقربةٍ ولا لجمال، بل لأنهم رأوا في بعضهم شيئاً من نور الله.

وهذه من أرقّ العلاقات الإنسانية: صداقةٌ بلا غرض، لا تنتظر عوضاً ولا تحشى فقداً لأنها مبنية على ما لا يزول. ومن أراد هذا النوع من الصّحبة فليحرص على أن يكون أخوه فيه الله، لا فيه ما يعطيه من دنيا.

أفشوا السلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا. ألا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

رواه مسلم

ربط النبي ﷺ دخول الجنة بالإيمان، والإيمان بالمحبة بين الناس، ثم وضع لتحقيق المحبة وصفتين: يسيرة: السلام. وما أيسرها! كلمة تقولها لمن عرفت ولمن لم تعرف، فتفتح بها قلباً مغلقاً، وتقلب الجفاء مودةً.

ومن جرب أن يبدأ الناس بالسلام وجد أن الصدور تنشرح، وأن الحواجز تنهار، وأن الغريب يصير قريباً. والسلام تحية الله في الأرض، وتحية أهل الجنة في الجنة، فمن أشاعه أشاع الأمن والمودة بين الناس.

حقّ المسلم على المسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حقّ المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العطاس».

رواه البخاري ومسلم

خمسة حقوق تغطّي دورة الحياة الاجتماعية: التحية عند اللقاء، والزيارة عند المرض، والمشاركة عند الموت، والحضور عند الفرح، والدعاء عند العطاس. فلا يبقى مناسبة من مناسبات الحياة اليومية والكبرى إلا وللأخوة فيها دور. وما سمّاها النبي ﷺ «مجاملات» بل «حقوقاً»، أي أنها واجبة بحكم الأخوة، يُسأل عنها المرء. وكم من علاقة تذبذب لأن أهلها تهاونوا بهذه الحقوق الصغيرة التي تبدو يسيرة، وهي في الحقيقة أوتادٌ تثبت الخيمة!

خير الإسلام

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أيّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

رواه البخاري ومسلم

سأل الرجل عن أفضل الإسلام، فلم يُجبه النبي ﷺ بعبادةٍ خاصة، بل بعملين اجتماعيين: إطعام الطعام، وإلقاء السلام. فكأن خير الإسلام هو ما ينفع الناس ويقربّ بينهم، قبل أن يكون ما ينفرد به المرء.

وفي قوله: «على من عرفتَ ومن لم تعرف» توسيعٌ لدائرة الأخوة حتى لا تقتصر على الدائرة الضيقة؛ فمن ألقى السلام على الغريب جعل المدينة كلها بيتاً واحداً، ومن أطعم الطعام جعل الجوع غريباً في أرض الإسلام. وهذا هو المجتمع الذي أرادَه النبي ﷺ.

الفصل الحادي عشر: علاقتك بالناس



الإنسان مدنيٌّ بطبعه، لا يستطيع أن يعيش وحده ولا أن يزدهر وحده؛ فكل ما فيه من لغة وفكر وحاجة يشدّه إلى الآخرين. غير أن الاجتماع بلا أخلاق يتحوّل إلى صراع، وهنا جاءت الأحاديث توضع للعلاقات ميزاناً يحفظ القلوب من الأحقاد واللسان من الأذى.

وليس في هذه الأحاديث ما يدعو إلى الذوبان في الناس ولا إلى الانعزال عنهم، وإنما إلى حضور فيه خير، وغياب فيه سلامة.

أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

رواه البخاري ومسلم

قاعدةٌ قصيرةٌ لو طُبِّقَتْ لأغلقت أبواب الحسد والغش والاحتكار والاستغلال؛
فمن أحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه لم يخدعه في بيع، ولم يغتبه في غيبته، ولم يفرح
لمصيبته. وقد جعل الحديث ذلك من تمام الإيمان، حتى كأن القلب الذي يضيق
بنجاح غيره قلبٌ ناقصٌ.

وما أصعب هذا على النفس! لأن الغريزة تُصوِّر الدنيا مائدةً محدودة، فكل لقمة
لغيرك نقصٌ منها. لكن المؤمن يرى أن عند الله ما لا ينفد، فلا يخاف من أن
يأخذ أخوه نصيبه.

المسلم من سَلِمَ الناس من لسانه

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سَلِمَ
المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

رواه البخاري ومسلم

ليس الإسلام دعوى ولا صورة، وإنما هو سلامة يمشي بها الإنسان بين الناس.
فاللسان قد يجرح أكثر من السيف، واليد قد تؤذي أكثر من الظلم المعلن؛ ومن
سلم الناس منهما فقد استكمل نصف الطريق.

ولعل النبي ﷺ قدّم اللسان على اليد لأن أذاه أسرع وأوسع وأخفى: يُقال الكلام في لحظة فيبقى أثره في القلب سنين. وتأمل كيف جعل سلامة الآخرين مقياس صحة الإسلام، فكأن الدين يُمتحن عند لقاء الناس لا في الخلوة وحدها.

قول الخير أو الصمت

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

رواه البخاري ومسلم

ثلاث وصايا قرنت بالإيمان بالله واليوم الآخر: الكلمة، الجار، والضيف. وكأن الدين يقول لك: إن أردت أن تعرف صدق إيمانك فانظر في كلمتك التي تقولها، وفي الباب القريب منك، وفي الغريب الذي دخل بيتك.

وللصمت في هذا الحديث مقامٌ شريف؛ فهو ليس عجزاً عن الكلام، بل هو حكمةٌ تعرف متى يكون السكوت أبلغ من الحديث. وكم من ندمٍ ما كان ليكون لو أمسك اللسان، وما سمعنا بمن ندم على صمتٍ طويل كما ندم على كلمةٍ واحدة.

كالجسد الواحد

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

رواه البخاري ومسلم

في الجسد لا يقول الرأس لليد: ما شأني بألمك، ولا تقول القدم للقلب: لا حاجة لي بك؛ فالألم في موضع واحد يوقظ كل الأعضاء. هذا هو المجتمع الذي يريده النبي ﷺ: لا يترك فيه أحد وحده في وجعه.

وعبر الحديث عن ثلاث درجات: الرحمة في القلب، والود في العلاقة، والعطف في الفعل. فإذا اجتمعت هذه الثلاث لم يبق في الأمة جائع ولا مظلوم لا يجد من يسمعه.

الدين النصيحة

عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

رواه مسلم

جعل النبي ﷺ الدين كله نصيحة، والنصيحة إرادة الخير للنصوح وإخلاص له في القول والعمل. فهي ليست استعلاءً بمعرفة ولا تشهيراً بغيب، وإنما هي صدقٌ مع الآخرين قائم على الحب؛ يعرفها الناصح بأنه يريد الإصلاح لا الانتصار.

ومن أراد أن ينصح فليتذكر أن الطبيب لا يهين مريضه وهو يعالجه، وأن الكلمة التي تخرج بنية الإصلاح تصل إلى القلب بأقصر طريق، بخلاف التي تخرج بنية التعيير فإنها تقف عند الجلد.

لا تحاسدوا ولا تدابروا

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً».

رواه البخاري ومسلم

هي سلسلة مترابطة: يبدأ الشر بظنٍّ لا دليل عليه، فيدفع إلى تجسسٍ ليؤكّده، ثم إلى حسدٍ وبغضاءٍ وتدابيرٍ وقطيعة. فمن أراد أن يقطع الحلقة فيقطعها من أولها: أن يُحسن الظنَّ ما وجد للإحسان سبيلاً.

وختم الحديث بالمعنى الإيجابي: «وكونوا عباد الله إخواناً»، فلم يكتفِ بالنهي عن الهدم، بل دعا إلى البناء. وما أحوج الناس إلى هذا! فإن ترك الأذى ليس إلا نصف الأخوة، ونصفها الآخر أن تمدّ يدك إلى من حولك.

في حاجة أخيك

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه؛ ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

رواه البخاري ومسلم

«لا يُسلمه» أي لا يتركه للعدو ولا للشدة وحده. فالأخوة الحقّة ليست مجاملةً في المجالس، بل هي حضورٌ في ساعة الضيق، حين يتفرّق الناس ويبقى الأصدقاء.

وانظر إلى تكافؤ الجزاء: من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج كربةً فرّج عنه كربة. كأن كل معروفٍ تفعله يُسجّل لك في رصيدٍ تحتاج إليه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

لا تحقرن من المعروف شيئاً

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

رواه مسلم

الوجه الطلق هو الوجه المبسوط المنشرح؛ وقد جعله النبي ﷺ معروفاً لا يُحقر. وكم من إنسان يخرج من بيته مثقلاً بالهموم، فيلقاه وجه طيب فيهنّ عليه ما كان عليه ثقيلاً! فالابتسامة لا تكلفك درهماً، وقد تُنقذ يوماً كاملاً.

وفي الحديث تحرير للمعروف من وهم الكبر: لا يشترط أن يكون عظيماً ليكون مقبولاً، فالصغائر المتراكمة هي التي تبني الأخلاق، كما تبني القطرات الأنهار.

الظلم ظلمات

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

رواه البخاري ومسلم

الظالم في الدنيا يظنّ أنه يمشي في النور، لأن الظلم قد يجلب له مالاً أو جاهاً أو انتصاراً؛ فيأتي الحديث ليقول إن هذه الأنوار الوهمية ستحوّل إلى ظلماتٍ مضاعفة في يوم الحساب، لا يهتدي فيها لطريق.

وفي صياغة الجمع «ظلمات» تنبيهٌ إلى أن للظلم أنواعاً ودرجات، لكل نوعٍ منها ظلمة. فاحذر أن تستهين بالظلم الصغير؛ فالظلمات تتراكم كما تتراكم الطبقات، وما كان صغيراً اليوم قد يكون هو ما يُطفئ نورك غداً.

كافل اليتيم

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً.

رواه البخاري

ما أقرب المسافة بين الإصبعين! وكأن النبي ﷺ أراد أن يُبين أن الذي يرعى يتيمًا يكون جاره في الجنة، حتى لا يفصل بينهما إلا قدر ما يفصل بين إصبعين متجاورتين. وهذه المنزلة لا يبلغها كثيرٌ من العباد.

واليتيم هو أضعف حلقات المجتمع، فمن حفظه فقد حفظ المجتمع كلّهُ؛ لأن اليتيم الذي يُهمل يتحوّل إلى قبلة مؤجلة، أما الذي يرعى فيصير لبنّة في بناء. وهكذا

يكون الإحسان إلى الضعيف استثماراً في المستقبل.

وصية جبريل

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

رواه البخاري ومسلم

بلغ من إلحاح الوصية بالجار أن ظنَّ النبي ﷺ أن الجار سيدخل في الميراث كما يدخل القريب. وما ذاك إلا لأن الجار أقرب الناس إلينا في الحياة اليومية، يرى بيتنا ويسمع أصواتنا ويعرف أحوالنا أكثر من بعض أقاربنا.

وحسن الجوار ركنٌ في استقرار الأحياء والمدن: من أذى جاره أفسد على نفسه راحته قبل أن يُفسد راحة جاره، ومن أحسن إليه عاش آمناً مطمئناً. فجار البيت يفصل بين بيتين، ولا ينبغي أن يفصل بين قلبين.

من لا يرحم الناس

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

رواه البخاري ومسلم

الرحمة عملةٌ تُنفق فتعود؛ فمن أنفقها على الناس عادت إليه من الله، ومن حبسها حُبست عنه. وهذه معادلة لا تتخلف: ما تبذله من القلب يرجع إليك من الأعلى.

ولم يقيد الحديث الناس بدين ولا عرق ولا قرابة، وكأن مجرد الإنسانية كافٍ لاستحقاق الرحمة. فمن قسا على مخلوقٍ ضعيف، فقد قدّم لنفسه حكماً بأن يعامله الله بمثل ما عامل به.

الفصل الثاني عشر: علاقتك بعملك



العمل ليس مجرد وسيلة لكسب الرزق، وإنما هو الميدان الذي يعلن فيه الإنسان عن نفسه، ويودع فيه جزءاً من عمره، ويصنع به أثره في الدنيا. ومن عمل عملاً فقد وقّع عليه بأمانته أو بخيانتته، وصدقه أو غشه.

والإسلام لم يجعل العمل ثقلاً على الروح، بل جعله عبادةً حين يُراد به وجه الله، وجعله شرفاً حين يغني الإنسان عن ذلّ السؤال.

من عمل يده

عن المقدام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطَّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

رواه البخاري

ذكر النبي ﷺ داود، وهو نبيّ وملك، ثم أخبر أنه كان يأكل من عمل يده؛ فكأنه يقول: إن كان الملك لم يستغنِ عن العمل، فمن يستغني؟ وفي هذا رفعٌ للحرف والصناعات من مرتبة الازدراء إلى مرتبة التأسي بالأنبياء..

وخيرية الطعام هنا ليست في طعمه، بل في كرامة صاحبه؛ فاللقمة التي تُكسب بعرق الجبين لا يُخالطها منّة ولا مذلّة. ولذلك كان من أراد أن يحفظ نفسه يحفظها بعمل يده قبل كل شيء..

حزمة الحطب

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحبله، ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكفّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه».

رواه البخاري

ما أقسى أن يقف الرجل أمام الناس سائلاً، فيُعطى أو يُمنع، وفي الحالين يذوق شيئاً من الانكسار! أما صاحب الحبل والحطب، فحملة ثقلٍ على ظهره، لكنه خفيف على كرامته.

وما نقصت قيمة العمل في قلب النبي ﷺ لكونه بسيطاً أو شاقاً؛ فالمهنة لا تُوزن بأجرها، بل تُوزن بما تحفظه من ماء الوجه. وكم من إنسانٍ يظنّ أن الخسّة في العمل، والحقيقة أن الخسّة في الاتكال.

إذا ضيّعت الأمانة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: «أين السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله. قال: «إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة».

رواه البخاري

سأل الأعرابي عن موعد النهاية، فأجابه النبي ﷺ عن علامتها: انتشار الفساد حين يتولّى الأمر من لا يُحسنه. كأنه يقول: لا تحسب النهاية بالتواريخ، احسبها بالأخلاق.

وإسناد الأمر إلى غير أهله ليس تحييراً فقط، بل هو خيانة مضاعفة: خيانة للمنصب لأن صاحبه لا يستحقه، وخيانة للناس لأنهم يُسلمون إلى من لا يقدر.

والعمل في أصله أمانة، تُؤدَّى بإتقان قبل أن تُحاسب عليها بأجر.

البيعان بالخيار

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما».

رواه البخاري ومسلم

أعطى الحديث التاجر قاعدتين: الصدق في الخبر، والبيان في العيب. فمن صدق فيما يقول، وأظهر ما في سلعته، بُورك له في ربحه وإن قلّ؛ ومن كتم وكذب أُعطى زيادةً ظاهرة ثم مُحيت بركتها.

والبركة معنى لا يقيسه الحساب: أن يكفيك القليل، وأن ينفعك ما معك، وأن لا تلاحقك المتاعب من حيث لا تشعر. وليس أغلى على الإنسان من تجارةٍ يبيت منها مطمئناً إلى أنه لم يخدع أحداً.

إن الله كتب الإحسان على كل شيء

عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

رواه مسلم

أن يكتب الله الإحسان على كل شيء، أي أن يجعل الإتقان قانوناً في كل عمل، حتى في الذبح الذي يبدو أبعد الأعمال عن الجمال. فمن أراد أن يعرف ما وراء الحرفة فلينظر إلى هذه التفاصيل: حدّ الشفرة، وراحة الذبيحة، ولطف اليد.

وإذا كان هذا في ذبح حيوان، فكيف بما هو أعلى: في كتابة، أو تعليم، أو بناء، أو علاج، أو خدمة إنسان؟ فالإحسان ليس إضافة ترفٍ على العمل، وإنما هو حقّ فرضه الله على كل ما يعمل الإنسان.

الغرس صدقة

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة».

رواه البخاري ومسلم

ما أوسع هذا الباب! يغرس الإنسان شجرة فتُظَلّ وتُثمر، ثم يأكل منها طائر لا يعرف من غرسها، فيكتب للغرس أجر. فالعمل النافع يتجاوز صاحبه، ويمتدّ في الزمان والمكان، كأنه نهر يجري بعد موت من حفر مجراه.

وهو درسٌ في النظر البعيد: أن يعمل الإنسان لما بعده كما يعمل لنفسه، وأن لا يربط قيمة الفعل بما يحصده منه بيده. وهكذا تتحوّل الدنيا من سوق قصير الأجل إلى مزرعةٍ يغرس فيها كل جيل لمن بعده.

راعي الغنم

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنتُ أرهاها على قراريط لأهل مكة».

رواه البخاري

أراد الله لأتبيائه أن يبدؤوا من مدرسة الرعي، وفيها الصبر على القطيع، والرفق بالضعيف، والمسؤولية عن الشارد. وكأن الرعي هو التمرين الأول على قيادة الأمم، فمن لم يُحسن رعي الغنم لن يُحسن رعي البشر.

وقد ذكر النبي ﷺ ذلك بتواضع كامل، ولم يُخفِ أنه كان يعمل بأجر قليل. وفيه ردٌّ على من يستعظم بعض المهن ويستحقر أخرى؛ فإن أشرف الخلق وأكملهم تقلّب في أعمال الناس، فما بال غيره يأنف؟

رحم الله رجلاً سمحاً

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».

رواه البخاري

دعوة بالرحمة لثلاثة مواقف يتعرّض فيها كثير من الناس: حين يبيع فيريد أن يربح كل شيء، وحين يشتري فيريد أن ينقص كل شيء، وحين يطالب بدينه فيريد أن يأخذ حقه بأقسى الطرق. فمن كان سمحاً في الثلاثة نال دعوة النبي ﷺ.

والسماحة لا تعني التفريط في الحق، بل هي لينٌ في اللفظ وتيسيرٌ في الشروط وعفوٌ عند المقدرة. وما نقصت تجارةً من سماحةٍ قطّ؛ فالمعاملة الحسنة تجلب الزبون، والوجه الطلق يربح القلوب قبل الجيوب.

من غشّ فليس مني

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشّ فليس مني».

رواه مسلم

أدخل النبي ﷺ يده في كومة الطعام ليختبر ما تحت الظاهر، وهذا هو التفتيش الحقيقي: ألا تكتفي بما يُعرض، بل تنظر فيما استتر. فصاحب الطعام جمع الجيد فوق والرديء تحت، فظنّ أنه نجا من العيون، ولم ينبج من العين التي لا تنام. وقد اشتدّ النبي ﷺ فتبراً من الغاشّ، وهو الرحيم بأمته، فدلّ على فداحة هذا الذنب. وكل مهنةٍ فيها طعامٌ أو دواء أو بناء أو علم لها صُبرتها التي يُخفى تحتها البلل؛ فمن أراد أن يحفظ دينه فليجعل ما تحت السطح كما فوقه.

حقّ الأجير

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى قال: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حُرّاً فأكل ثمنه، ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِه أجره».

رواه البخاري

خصومةٌ من الله نفسه! ومن كان الله خصمه فمن ينصره؟ وقد جعل من ثلاثهم الذي يأكل حق عامل: استوفى جهده ولم يؤدّ ثمنه، فجمع بين استغلال التعب ومنع الأجر، وهذا من الظلم الذي لا يُغْتَفَر بسهولة.

وتأمّل أن هذه الثلاثة كلها في باب الأمانة: العهد، والحرية، والأجرة. وكأن الحديث يعلننا أن شرف العمل في أداء حقوق العاملين، وأن أخلاق المؤسسة تُقاس بما تعطيه لأصغر موظفيها قبل أن تُقاس بما تأخذه من كبار عملائها.

الفصل الثالث عشر: علاقتك بمالك ودنياك



المال خادمٌ نافعٌ وسيدٌ جائرٌ؛ فإن ملكه الإنسان كان عوناً له على الطاعة، وإن ملكه المال صار قيداً في عنقه لا يراه ولا يفكّ عنه. وما الدنيا إلا ظلٌّ يمتدّ ثم يقصر، والعاقل من أخذ منها ما يبلغه ولم يجعلها غاية قلبه.

وليس في الأحاديث ما يدعو إلى ترك الدنيا ولا إلى عبادتها، وإنما إلى مرورٍ فيها بقلبٍ حرٍّ ويدٍ عاملةٍ.

ما نقصت صدقة من مال

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله.»

رواه مسلم

الحساب في المال حسابان: حسابٌ تعرفه الأرقام فيقول إن الصدقة نقصان، وحسابٌ يعرفه الإيمان فيقول إنها بركةٌ تُخلف. وقد جربَ الناس هذا مراراً، فوجدوا أن المنفق يجد الله خالفاً عليه من حيث لا يحتسب، وأن البخيل يموت وماله معه في دفاتر لا ينتفع بها.

ثم جمع الحديث بين المال والعفو والتواضع، لأن الثلاثة تشترك في أنها تبدو خسارةً في الظاهر، وهي في الحقيقة رفعة. فالمعطي يرتفع بالعتاء، والعافي يرتفع بالعفو، والمتواضع يرتفع بالتواضع؛ والقاعدة واحدة: ما تبذله لله يعود إليك أعلى مما بذلت.

غنى النفس

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

رواه البخاري ومسلم

العَرَض هو متاع الدنيا، والكثرة منه لا تصنع غنى إذا بقيت النفس جائعة. فكم من ثريٍّ يشعر بالفقر لأن حاجته تسبق ماله، وكم من قليل ذات اليد يعيش ملئاً لأن حاجته تقصر عن كفايته.

والفقر الحقيقي هو الطمع الذي لا يشبع؛ يُعطى صاحبه وادياً من ذهب فيطلب ثانياً. أما القناعة فكأن لا ينفد، لأنها تجعل ما في اليد كافياً، وتعلم الإنسان أن السعادة ليست في مضاعفة ما عنده، بل في تقليص ما يحتاج إليه.

غريب أو عابر سبيل

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكي فقال: «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

رواه البخاري

الغريب لا يبني قصراً في أرض الغربة، ولا يتعلّق بها كما يتعلّق صاحب الوطن؛ وعابر السبيل يخفّف حمّله لأنه يعلم أن الطريق طويل. وكأن النبي ﷺ يضع يده على كتف كل واحدٍ منا ليقول: الدنيا ممّرٌ، فلا تتخذها مقراً.

وليس معنى هذا أن يُهمل الإنسان عمارتها، فالغريب الحكيم يُحسن الزاد ويصلح الراحلة؛ لكنه لا ينسى أن له وجهةً غير الطريق. وقد قال ابن عمر في تفسير ذلك ما معناه: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

ما لك من مالك

عن عبد الله بن السَّخِير رضي الله عنه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَافُ التَّكَاثُرِ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفئيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأمضيت؟».

رواه مسلم

ما أقسى هذا الحساب على من يعدّ ما في خزائنه! يقول له الحديث: كل ما تملك ليس لك، إلا ما استهلكته في حاجتك، وما أمضيته إلى الله. أما الباقي فهو في ملكك اسمًا، وفي ملك غيرك فعلًا.

والصدقة هنا هي الوحيدة التي لا تنفَى ولا تتلى، لأنها الجزء الوحيد من المال الذي تسبقك به إلى الآخرة؛ فمن أراد أن يكون له مالٌ حقيقي فليحوِّله إلى ما يبقى، كما يحوّل المسافر نقوده إلى عملة البلد الذي يقصده.

ولو بشقّ تمرّة

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشَقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

رواه البخاري ومسلم

لم يُسقط النبي ﷺ باب الصدقة عن الفقير ولا عن المعدم، بل فتحه بأيسر ما يكون: نصف ثمرة. فإن عجز عن المال بقيت الكلمة الطيبة، فلا يخرج أحدٌ من دائرة العطاء ولو كان أفقر الناس.

وفي هذا معنى كبير: أن الكرم ليس في المقدار، وإنما في الاستعداد؛ فمن أعطى القليل وهو لا يملك غيره، أعطى أكثر ممن أعطى الكثير وفي يده ما هو أكثر منه. ومن هنا سُمِّيَ المعروف معروفًا: لأن القلوب كلها تعرف قيمته مهما صغر.

اليد العليا

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة -: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة».

رواه البخاري ومسلم

جعل النبي ﷺ الناس طبقتين: يدٌ تُعطي من فوق ويدٌ تأخذ من تحت، ودعا كل واحدٍ إلى أن يكون من الأولى. وليس المقصود احتقار السائل المحتاج، وإنما حث كل قادرٍ على أن يعمل حتى يصير معطيًا.

وكم من حياةٍ تغيّرت لما قرّر صاحبها أن يكون ممن يُعطي! فالإنسان الذي يرى نفسه مصدرًا للخير يحترم نفسه، وينظر إلى الدنيا نظرةً مختلفة. وهذه أعمق صور التربية الاقتصادية: أن تُنشئ الأمة رجالًا يعطون قبل أن يأخذوا.

ملكان ينزلان

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا».

رواه البخاري ومسلم

كل صباح يُفتح بدعاء ملكين: أحدهما لمن ينفق بالخلف، والآخر لمن يمسك بالتلف. فالمنفق في عناية الغيب حيث لا يراه، والممسك في خطر يحيط به من حيث لا يعلم؛ وقد يكون تلف مال البخيل في صورة مرض، أو حادث، أو ضياع، أو ورثة يُفسدون ما جمعه.

وقد جاء الدعاء مرتين لكل يوم، فهو قانون يومي وليس استثناءً نادرًا. فلا يغرنك أن ترى بخيلًا ثريًا، فإن في كل يوم يُجدد عليه دعاء بالتلف، وإن لم يظهر أثره بعد.

عبد الدينار

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ».

رواه البخاري

كلمة «عبد» هنا هي المفتاح: ليس المال في ذاته مذموماً، وإنما الذم لمن استعبده المال، فصار رضاه وسخطه رهناً بما يُعطى. فهذا الذي يتبدّل مزاجه بتبدّل رصيده ليس حراً، وإن ملك الألف.

والعبودية الحقّة هي التي تجعل رضا الإنسان مرتبطاً بمن يستحقّ الرضا: بالله لا بدينار. ومن أخلص عبوديته لله تحرّر من كل عبودية، وصار قلبه سيّد نفسه، يرضى لرضا ربه، ويسخط لسخطه.

أخشى أن تبسط الدنيا

عن عمرو بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم».

رواه البخاري ومسلم

أعجب ما في هذا القول أنه يقلب مخاوف الناس: يخافون الفقر فيسعون في دفعه، والنبي ﷺ يخاف عليهم من الغنى، لأن الفقر يُقوّي الصبر ويُلين القلب، والغنى قد يُنسي ويُطغي. فمن رأى النعمة اختباراً لم تهلكه.

والتنافس الذي يُحذّر منه ليس السباق في الخير، بل التهالك على الدنيا حتى تتحوّل إلى غاية. وقد شهد التاريخ أمّا انهارت وهي في ذروة ثرائها، لأن الثراء لم يجد فيها قلوباً تحمله.

من أخذ يريد الأداء

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله».

رواه البخاري

الدّين أمانة في الذمّة، والنية فيه هي الحكم: من أخذ ومعه عزمٌ صادق على الوفاء أعانه الله حتى يؤدي، ومن أخذ وفي قلبه الجحود أضاعه الله وأتلف ماله. فهي معادلة النية التي قامت عليها الأعمال كلها.

وكم رأينا مديوناً ضعيفاً وقى بما لم يكن يظنّ أنه قادر عليه! وكم رأينا غنياً تحوّل ماله خسارةً بعد خسارة لأنه كان ممّاطلاً! وهذا من سنن الله في الأرض لا يُخطئ.

الفصل الرابع عشر: علاقتك بعلمك ووقتك ولسانك



ثلاثة أشياء يحملها الإنسان معه في كل لحظة، ويظنّها رخيصةً لأنها قريبة: عقلٌ يتعلّم، وزمنٌ يمضي، ولسانٌ يتكلم. وما من خسارةٍ أعظم من خسارة عقلٍ لم يتعلّم، وعمرٍ لم يُغنّم، وكلمةٍ لم تُحسّن.

وفي هذه الأحاديث تنبيهٌ على أن أؤمن ما تملك ليس ما في يدك، بل ما في رأسك وما بين شفّتيك وما يمرّ من ساعاتك.

الصحة والفراغ

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ».

رواه البخاري

المغبون هو المخدوع في صفقته، يبيع ما يساوي كثيراً بما يساوي قليلاً وهو يحسبه ربحاً. وهكذا يفعل أكثر الناس بالصحة والفراغ: يظنونهما حقاً مضموناً لا ينتهي، فيبددونهما في ما لا يعود عليهم بشيء، حتى إذا مرضوا أو شغلوا عرفوا ما ضاع. والعجيب أن كلتا النعمتين لا تُعرفان إلا عند فقدهما؛ لا يحسّ الإنسان بقيمة النفس إلا إذا ضاق، ولا بقيمة الوقت إلا إذا ضاق. فمن أراد أن يتعلم قبل أن يخسر، فليتأمل هذا الحديث في ساعة عافيته.

الفقه في الدين

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين».

رواه البخاري ومسلم

ليست كل معرفة علامةً على الخير، فكم من إنسانٍ علم الكثير ولم يزدد به إلا قسوة! أما الفقه الذي يعنيه الحديث فهو فهمٌ يخالط القلب فيذبّ السلوك، وينير الطريق، ويجعل صاحبه أقدر على أن يعرف ما يرضي ربه في كل موقف.

ولاحظ أن الحديث جعل الفقه علامةً على إرادة الله الخير بعبد، لا نتيجةً لذكائه ولا لجهد وحده؛ فهو منحةٌ تُطلب بالدعاء كما تُطلب بالدرس. وما أجمل أن يرى

المتعلّم في كل مسألة يفهمها بشارَةً من الله له!

طريق إلى الجنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة».

رواه مسلم

قال «سلك» فجعل طلب العلم رحلةً، والرحلة لها خطوات وتعب ومنازل. وفي هذا بشارَةٌ للطلاب: أن كل خطوة يمشيها في سبيل العلم يقابلها خطوة يمهدّها الله له نحو الجنة، حتى يكون طريقه في الدنيا هو نفسه طريقه إلى الآخرة.

وعبر عن العلم بالطريق لأنه لا يتحقق في لحظة، وإنما بالمشي المتّصل. فمن ظنّ أنه بلغ فقد وقف، ومن أدرك أنه ما زال في الطريق استمر؛ وهذا سرّ العلماء العظام: كلما كبروا ازدادوا شعوراً بقلّة ما يعرفون.

الكلمة التي لا يلقي لها بالاً

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم».

رواه البخاري

كلمةٌ عابرةٌ تخرج من اللسان بلا تفكير، لكنها تُسجّل ولها وزن. قد تكون كلمة تُصلح بين متخاصمين، أو تُعين مظلوماً، أو تُطيب خاطراً، فترفع بها درجات؛ وقد تكون كلمة ظلم أو سخرية أو غيبة، فهوي بصاحبها.

وفي عبارة «لا يلقي لها بالاً» سرّ الخطر: أن الإنسان لا يظنّ الكلمة جريمة ولا طاعة، فيقولها كما يتنفس. وهكذا يُبنى مصير الإنسان في أشياء صغيرة لا ينتبه إليها، كما يُبنى الجدار بحجارة لا يحسب أحدٌ منها حجراً واحداً.

بلّغوا عني

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بلّغوا عني ولو آية... ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

رواه البخاري

جعل النبي ﷺ كل مسلم مبلِّغاً، لا يُشترط في ذلك علم الأكابر؛ فإن عرف آية بلِّغها، وإن عرف حديثاً بلِّغها، والعلم يتسع بالتبليغ كما تتسع النار بالخطب. فالعالم ليس من ملك علماً فحسب، بل من أنفقته.

ثم قرن التبليغ بتحذيرٍ شديدٍ من الكذب، ليبقى العلم نقيّاً لا يختلط به هوى. فالتبليغ أمانة، لا ينبغي أن يزيد المبلِّغ فيه ولا ينقص، ولا أن يخلط بين ما سمع وما أراد أن يسمع.

خيركم من تعلّم القرآن

عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيرُكم من تعلّم القرآن وعلمه».

رواه البخاري

اجتمع في هذه الخيرية فعلاً: التعلّم والتعليم؛ فمن أخذ وحبس لم ينل هذا الوصف، ومن علم ولم يتعلّم لم يستحقّه. فالخير هو الحلقة المتصلة: تأخذ من معلّمك فتمنح تلميذك، فلا ينقطع نهر العلم.

وليس المراد بالتعلّم الحفظ وحده، بل الفهم والعمل؛ فقد كان الصحابة يتعلّمون عشر آيات فلا يجاوزونها حتى يعملوا بما فيها. فالقرآن ليس ألفاظاً تُحفظ، بل هو

منهجٌ يُعاش، ومن علمه فقد علم الناس كيف يعيشون.

ما الغيبة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرُ أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بهتَه».

رواه مسلم

ظنّ السائل أن صدق الكلام يُبرّئه، فجاء الجواب يقطع الطريق: الغيبة ليست كذباً بل هي صدقٌ في غير موضعه؛ أن تقول عن غائب ما لو سمعه لآلمه. فإن كان كذباً فهو بهتانٌ مضاعف، وإن كان حقاً فهو غيبة.

وما أسهل الوقوع فيها في المجالس! تبدأ بـ«ما رأيك في فلان؟» وتنتهي بتمزيق سمعته. وأجمل علاج لها أن تتخيّل غائبك حاضراً يسمعك، فإن كنت ستقول ما قلت بين يديه فقد سلمت، وإلا فالصمت أحوط.

الكلمة الطيبة صدقة

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فِيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

رواه البخاري ومسلم

على كل عضوٍ في جسدك صدقةٌ كل يوم، شكراً على نعمة السلامة؛ والنبي ﷺ لم يُحوّلها إلى عبء مالي، بل فتح لها أبواباً كثيرة: كلمة، وخطوة، ومعونة، وإصلاح، وإزالة أذى. فمن أيّها أنت؟

وفي هذا الحديث يتّسع مفهوم الصدقة حتى يشمل كل ما ينفع الناس، فلا يعتذر أحدٌ بقلّة المال. والكلمة الطيبة هي أسرها وأعمّها، ولعلها أعظمها أثراً؛ فكم من كلمة طيبة أخرجت إنساناً من يأسه!

الفصل الخامس عشر: علاقتك بما حولك من الخلق



لم يُخلَق الإنسان في كونٍ مغلقٍ على نفسه؛ بل وُضع بين أحياءٍ وجمادات، لكلٍّ منها حقٌّ وقيمة، ولكلٍّ منها لسانٌ يسبِّح ربه ولو لم نفقهه. ومن أحسن إلى الخلق كله أحسن إلى نفسه، لأنه يتعلَّم الرحمة التي ستعود إليه.

وفي هذه الأحاديث دروسٌ في أخلاق الإنسان مع الحيوان والجماد، وهي دروسٌ جاءت قبل أن تعرف الأرض جمعيات الرفق والبيئة.

في كل كبدٍ رطوبةٌ أجر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريق، اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبُ من العطش مثلاً الذي كان بلغ مني». فنزل البئر فملاً خُفَّهُ ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبدٍ رطوبةٌ أجر».

رواه البخاري ومسلم

لم يكن هذا الرجل نبياً ولا ولياً معروفاً، كان مسافراً ظمآن، لكن ذاكرة العطش جعلته يقرأ في عيني الكلب ما قرأه في نفسه، فتحرك قلبه قبل يده. فالرحمة تبدأ بالتخيّل: أن ترى حال غيرك فتُحسّ به كأنه حالك.

وقد غُفر لهذا الرجل بشربة ماء، لأن الله يقبل من العباد ما يصدر عن قلب حيّ. وهذا يعلمنا أن الحياة ليست امتحاناً في الأعمال الكبرى وحدها؛ ففي كل يوم فرصةٌ لسقيا كبدٍ رطوبة، ينتظرها الله قبل أن ينتظرها الجائع.

امرأة دخلت النار في هرة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

رواه البخاري ومسلم

هذا هو الوجه الآخر للحديث السابق: كما أن شربة ماء رفعت رجلاً إلى المغفرة، فإن حبس هرة بلا طعام أدخل امرأة النار. وليس في الحديث ما يهون الذنب لصغر المخلوق؛ فالله يرى الظلم ظلماً ولو وقع على أضعف الكائنات.

وفيه أن الجريمة ليست في الحبس وحده، بل في الجمع بين الحبس والتجويع: أن تقيّد مخلوقاً وتمنعه حقه وتغلق عليه سبيل الرزق. وما أكثر ما نفعل ذلك بالضعفاء من الناس دون أن نشعر!

جبل يحبنا ونحبه

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ طلع له أحد فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه».

رواه البخاري ومسلم

نظر النبي ﷺ إلى الجبل نظرةً من يرى في الجماد حياةً، ويحسّ فيه أنساً. فالإنسان الذي يعيش مع الأرض والجبال والأشجار بقلبٍ حاضر يرى الكون كله كتاباً مفتوحاً، لا موادَّ صامتة.

وهذا شعورٌ لا يعرفه من يتعامل مع الطبيعة كمخزنٍ يُستنزف، وإنما يعرفه من يراها آيةً تُقرأ. ولعلّ النبي ﷺ أراد أن يعلمنا أن الحبّ لا يقتصر على البشر، وأن القلب الواسع يتسع لكل ما خلق الله.

نملةٌ واحدة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلاً نملةٌ واحدة؟».

رواه البخاري ومسلم

غضب النبي من لدغةٍ فعاقب قريةً بأسرها، فجاء العتاب الإلهي وهو في ذروة اللطف: نملةٌ واحدة لدغتك، فلم أحرق أمة؟ وهذا درس في العدل، لا في الحيوان وحده: أن لا يؤخذ بريءٌ بذنب غيره، وأن العقوبة تُقدَّر بقدر الذنب.

وفي الحديث إشارة إلى أن الله يرى للمخلوقات الصغيرة حرمة، وإن كانت في أعين الناس هيّنة؛ فالنمل أمة، والأمم لا تُحرق لأجل لدغة. فمن علمه الله هذا الأدب مع النمل كان أحرى أن يتأدّب مع البشر.

لا تتخذوا الروح غرضاً

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً».

رواه مسلم

الغرض هو الهدف الذي يُرمى عليه للتدريب أو اللهو؛ فمن جعل حيواناً حياً هدفاً لسهامه أو حجارته تلذّذاً، استحقّ اللعنة. فالروح ليست لعبة، والألم الذي يُصيب المخلوق ليس مادةً للتسلية.

وفي هذا الأدب تربيةٌ للنفس قبل حماية للحيوان: فمن تعود أن يتلذّذ بألم الضعيف الصغير اعتاد يوماً على ألم الضعيف الكبير. وما الفاصل بين القسوة على الحيوان والقسوة على الإنسان إلا خطوة صغيرة، يقطعها القلب إذا تعود.

الأرض مسجد

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «جُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل».

رواه البخاري ومسلم

ليست الأرض عند المسلم مكانًا يمرّ عليه فقط، بل هي محرابٌ مفتوح، يسجد على ترابها حيث أدركه الوقت، فلا يحتاج إلى بناءٍ ولا زخرف. وكأن الكون كله بيتٌ لله يُصلّى فيه، وما المساجد المبنية إلا إشارات إلى ما هو أوسع.

ومن رأى الأرض مسجدًا ترفّق بها: لا يُفسد ماءها ولا يلوّث ترابها ولا يقطع شجرها بغير حاجة. فإن من يعلم أنه يسجد على هذه الأرض يعلم أن لها حرمة، ولا يُدنّس موضع سجوده.

الفصل السادس عشر: علاقتك بالموت والآخرة



آخر العلاقات هي أول ما ينبغي أن يُفكر فيه: فمن عرف مصيره حسن سيره، ومن جهل منتهاه ضلّ في الطريق. والموت ليس نهاية الكلام، بل هو نقطة يُغلق عندها صفحة من كتاب ويُفتح على صفحة أخرى لا تنتهي.

وقد علّمنا النبي ﷺ ألا نتمنى الموت هروباً، ولا نخافه جنباً، وإنما نعدّ له زاداً يكفي، ونحيا كأن كل يوم رصيدٌ إلى غدٍ نرجو فيه لقاء ربنا.

لا يتمنّ أحكم الموت

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنّ أحكم الموت لضّرّ نزل به، فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

رواه البخاري ومسلم

في ساعة الضيق قد يتنّى الإنسان أن ينتهي كل شيء، فجاء الحديث يعلمه أن هذا ليس حلاً، وأن الله أعلم بما ينفعه. فمن ضاقت به الدنيا فليطلب الفرج لا النهاية، وليدعُ أن يختار الله له ما هو خير.

ودعاء الحديث درسٌ في التسليم: لا تُحدّد لربك موعد الرحيل، ولا تُحرّم عليه الإبقاء؛ بل ضع الأمر في يده، وقل: اختر لي. وهكذا يُبدّل اليأس رجاءً، والتمنيّ دعاءً، فيجد المكروب ما يتشبّب به.

ثلاثةٌ لا تنقطع

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

رواه مسلم

كل الأعمال تنتهي بانتهاء صاحبها إلا ما بقي أثره: ماءٌ يسقي العطاش، أو كتابٌ يهدي الحيارى، أو ابنٌ يرفع كفيه إلى السماء. فالإنسان الذي هو من يضع في الدنيا بذوراً تثمر بعد رحيله، فيعيش أجره بعد أن يوارى جسده.

وفي الحديث ما يردّ على الظنّ بأن الموت يقطع كل صلة: فالمؤمن حيّ في أثره، كما أن الشجرة حيّة في ثمرها. ولا يخلو الإنسان من أن يكون له نصيب في إحدى الثلاث؛ فليحرص أن يكون له في الثلاث جميعاً.

ما لا عين رأت

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

رواه البخاري ومسلم

يعجز الوصف هنا لأن اللغة وُضعت لما نراه ونسمعه ونخيّله، وهذا النعيم خارج عن الثلاثة. فلا هو مما ترسمه العين، ولا مما تنقله الأذن، ولا مما يهيجس به القلب؛ هو أمرٌ جديدٌ كل الجِدّة، يأتي الإنسان فيدهشه.

وقد اختار الله لهذا النعيم صفة «المُعَدِّ»، فكأنه تحضيرٌ سابقٌ يُجهّز لمن ينتظره؛ فلا يأتي الصالحون إلى بيتٍ لم يُهيأ، بل إلى ضيافةٍ مُعدّةٍ من قبل أن يُخلقوا. فمن تأمل هذا هانت عليه مشاق الطريق.

كلمتان خفيفتان

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

رواه البخاري ومسلم

ما أيسر الكلمتين على اللسان! لا يحتاج الإنسان معهما إلى مال ولا إلى جهد ولا إلى وقت طويل؛ ثم ما أثقلهما في الميزان! فكأن الله جعل أعظم الأرباح في أيسر الأعمال، ليسقط عذر الكسالى ويزيد في أجر المقبلين.

وبهذا الحديث ختم البخاري كتابه، كأنه أراد أن يقول: بعد كل هذه الأحكام والمواعظ والسير، يبقى هذا الذكر هو الزاد الذي تلقى به ربك. فاجعل لسانك رطباً به، وقلبك مطمئناً إليه، ثم انتظر الميزان.

مقعدك صباح مساء

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات أحدكم عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

رواه البخاري ومسلم

يبدأ الحساب الأول بمشهد رحيم أو مخيف: يُعرض على الميت مصيره صباحاً ومساءً، فإن كان من أهل النعيم زاده ذلك شوقاً، وإن كان من أهل الشقاء زاده حسرةً وخوفاً. ولا ينتظر الإنسان القيامة ليعرف عاقبته، بل يُبشّر أو يُنذَر منذ أول لحظة.

وفي هذا الخبر ما يكفي لإيقاظ الغافل: أن حياته القصيرة تحدّد مقعده الطويل، وأن مرحلة ما بعد الموت ليست فراغاً. فمن أراد أن يعرف مقعده غداً فليُنظر في أعماله اليوم.

حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

رواه مسلم

كلمتان تختصران طريقين: طريق الجنة تحيط به المكاره، من صلاة في برد الفجر، وصبر على بلاء، وكبح شهوة، ومشقة جهاد؛ وطريق النار تحفّ به الشهوات الملهمة الجذابة. فالمكاره سورٌ يخفي وراءه جمالاً، والشهوات سورٌ يخفي وراءه هلاكاً. ومن يدرك هذا يدرك أن الراحة العاجلة ليست علامة على الصواب، وأن الشدة ليست دليلاً على الخطأ. فكثيراً ما يكون الطريق الذي نكرهه هو الطريق الذي ينتهي إلى الخير، وكثيراً ما يكون الطريق الذي نشتهي آخره حسرة.

من المفلس؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تَدْرُونَ مَا الْمَفْلَسُ؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُتيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرِحَ في النار».

رواه مسلم

قلب النبي ﷺ معنى الإفلاس: ليس المفلس من نفذ ماله، بل من نفذت حسناته؛ فجاء بعبادات كثيرة وحقوق مهدورة، فتوزعت عباداته على أصحاب الحقوق، ولم يبقَ له منها شيء. وهذا أبلغ تحذير من أن يفصل الإنسان بين عبادته ومعاملته.

وأخطر ما في الحديث أنه يخاطب أهل الصلاة والصيام والزكاة، لا أهل المعاصي الظاهرة؛ فقد يقف أحدهم يوم القيامة وقد نسي أنه اغتاب فلاناً وأكل حقّ فلان. فالتحلّل من المظالم قبل الموت هو أول واجبات من أراد النجاة.

خاتمة



هذه ست عشرة علاقةً تحيط بالإنسان من كل ناحية: علاقته بربه، ونفسه، وذنوبه وتوبته، وعبادته، ودعائه وذكره، وأخلاقه، وصبره وابتلائه، وجسده وصحته، وأهله، وأصحابه، وناسه، وعمله، وماله، وعلمه ووقته ولسانه، وما حوله من الخلق، وموته وآخرته. وإذا نظرتَ فيها جميعاً وجدتَ أنها ليست أبواباً منفصلة، وإنما هي بابٌ واحدٌ يفتح من ست عشرة جهة.

فمن أحسن علاقته بربه صحَّ له ما بعدها، لأن الأصل إذا صلح استقامت الفروع؛ ومن أحسن علاقته بنفسه وتعاهدها بالتوبة والذكر والدعاء استقام له الجهاد الأول، فهان عليه ما بعده؛ ومن أحسن خلقه وصبر على بلائه وحفظ جسده كان أقدر على خدمة ربه وعباده؛ ومن أحسن علاقته بأهله وأصحابه وناسه كان بيته جنّة وطريقه سلاماً؛ ومن أحسن علاقته بعمله وماله نال الحلال وسلم من الذلِّ؛ ومن أحسن علاقته بوقته ولسانه وعلمه ملك أثنى ما يملك؛ ومن أحسن علاقته بما حوله من الخلق عرف أن رحمة الله تبدأ من رحمته؛ ومن أحسن علاقته بموته وآخرته مشى في الدنيا مشية المطمئن إلى المصير.

وما هذا الكتاب إلا بداية؛ نخيرُ منه أن تُطبَّق حديثًا واحدًا في يومك، من أن تحفظ مائةً دون أن تعمل. نسأل الله أن يجعل علمنا حجةً لنا لا علينا، وأن يرزقنا حسن الصلة به وعباده. وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.